عمر غبرا

متسول المأساة

رواية

متسول المأساة

خطوط وظلال
للنشـــر والتـوزيـع

الأُردن، عمّان، جبل الحسين، بناية (٢٠)
تلفون: ٥٧٤٦٢١٨ ٧٩ ٩٦٢+ - ٤٦٥١٨٤٦ ٦ ٩٦٢+
email: dar٥otot@gmail.com
ص.ب: ١١١٩٠، عمّـان ٩٢٥٢٢٠ الأردن

متسول المأساة - عمر غبرا
رواية - طبعة أولى، ٢٠٢٥
جميع الحقوق محفوظة ©
تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي:

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the Publisher
جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

عمر غبرا

متسول المأساة

رواية

(1)

تراصّت الغيوم فوق بعضها البعض حتى حجبت شعاع الشَّمس، فمنحت للمدينةِ حُلّةً شاعرية شتوية حين تلبسها يشعُر الناظر إليها بالدفءِ، وينجذبُ نحوها مفتوناً بتفاصيلها، ويصبح كأي عاشقٍ في ظمأ أبديٍّ لها، فلا يرتوي منها مهما عبَّ من قَسماتها. ودمشقُ مدينةٌ تنفردُ عن بقية المُدن بأن لها وجداناً وروحاً وذاكرة، وهي وفيةٌ لعشاقها لا تنسى وجوههم وإن كثروا واختلفت منابتهُم، فكيفَ وإن كانَ العُشاقُ مِمّن شبّوا وشابوا في فيئها؟! مدينةٌ تفهمُ وقعَ خطا السائرين في دروبها، وتترجمُ اهتزازات أفئدتهم، فتميزُ المُحبَّ عمّن حملَ لها الضغينةَ وإن جاهدَ ليخفيها.

يجيب أبو سالم دائماً حينَ يُسألُ عن طولِ سيره في دروبها: شجيراتُ المدينةِ، وبقايا الخبزِ الساكنة أطراف الأرصفةِ يعرفنني مثلما تعرفُ الأم وجه ولدها.

فإن عمله كبائعِ فولٍ مُتَجَول منحه تلك المَزيّة، فكان لشدة حفظه تفاصيل المدينة يزهو بنفسه حينَ يحصي للآخرين أَسبِلَةَ المياهِ ومواضِعها في أحياء المدينة، أو يذكرُ نادرةً من تاريخها القديم، أو يرشد أحداً بوصفٍ دقيقٍ لمحلٍّ قديمٍ نسيه التاريخُ غافياً في متاهةِ الجمالِ الدمشقيِ العتيق.

والآن بعدَ أن نظرَ نحو السَّماء للحظاتٍ شعرَ بالرَّاحة قد ملأت نفسه، فابتسم، ولكن تلك الرَّاحة استعجلت الرَّحيل، فحينَ أخرجَ عربة الفولِ مِن فِناء منزله انقبضت نفسه من رائحةٍ كريهةٍ وجدها قد ملأت الأجواء. وكذلكَ وجد الدَّرب فارغًا من النَّاس تتسابقُ فيه النسماتُ المُحمّلةُ بهذه الرائحةِ الدخيلة وأرضه مازالت تحتفظُ ببقايا مياه الأمطارِ ليلةَ الأمس. كانَ لزامًا عليه كُلِّ يومٍ أن يمضي في ساعات الصَّباح المبكرة ليبجثَ عن رزقه، يسرحُ بين الأزقةِ ويقف في الساحات العامةِ وعند أبوابِ المدارسِ ويأخذه الحنين في بضعة أحيانٍ ليقفَ على أطلال المسارح.

راح يدفع العربةَ ويُدفِّئ كفيه بالتناوب على حلّة الفول وهو يتلفتُ في كل اتجاهٍ كأن به يلاحقُ مصدرَ الرائحة التي أزعجته دون رشدٍ، وفي مُنتصف الحارةِ بينَ منزله والشارعَ الرئيس شعر بعجلة العربة اليمينية الخلفية قد فرغت من الهواء، فركن العربة على جانب الدَّرب واستلَّ سيجارةً. لقد اعتاد في الحقيقةِ حدوثَ هذا الأمرِ، لكنه لم يألف أن يبدأ به يومه، فجعلَ ينظرُ إلى العربة بحسرةٍ سرعان ما صُبغت ملامحه بها، حسرة لم يكن ليسمحَ بأن يراها بعينيه أحد، فإنه يأنفُ من أن تنظر النَّاس إلى آلامه وتتفحصها كسلعةٍ للشراء. وهو كذلكَ ينفثُ دخانه في الفضاء الضيق عليه ويهمسُ قائلاً لنفسه: أيها الباحثُ أبداً عن ظلٍّ باسمٍ لك... لن تراهُ، إنّكَ غارقٌ في العبثِ... وتكابر. أبعدَ نظره عن العجلةِ العاقّة،

فرأى دُكان مُهند وقد رُفِعَ بابها الحديدي، فاستبشر، كانت هذه الدكان المزنّرة بشجرة مدّادةٍ دائمة الخضرة تبعد عنه بضعة أمتارٍ، فمضى إليها، وإذا بالباب الزجاجِي مغلقٌ، فأنعم النظر إلى ما خلف الزجاج، ولثوانٍ قليلة رأى مهند رفقة فتاةٍ اتضّح منها شعرها الكستنائي ورأى ميلانـًا في خصرها دقيق الرسم، يلثمُ أحدهما الآخرَ بشهوةٍ بدائية، وخُيّلَ إليه من حالتهما الهائجة أنه سمعَ صوت أنفاسهما الثائرة وحفيف ثيابِ الفتاة بالحائط الذي تستندُ إليه رأته الفتاة وقد أطبقَ بوجهه على الزجاج، فهرولت إلى الباب، وخرجت مرتاعةً تشيعها نظراته، ومن بعدها أقبلَ مهند إليه يختال زهواً بمحاولة منه بأن يدفنَ خوفه باختياله وهو يصلحُ ما فسد من حال قميصه البني، إنه حنطي البشرة، ذو نفسٍ مستهترة ضحوكة. شَدَّ أبو سالم على ساعده وهو يؤنّبه: ألن تكف عن تصرفاتك الرديئة هذه... ؟

أجاب وهو يبعد وجهه إلى الخلف وعلى خديه بسمة: ما أتى بك الآن؟!

لكزه أبو سالم وهو يدفعه باتجاه العربة: اذهب، فساعدني باستبدال العجلة، نتكلم بأمرك لاحقـًا، والله قد مللت من نصحيَّ لك.

شمَّرَ مهندٌ عن يديه وأضاف هازئـًا: كما هي عادتك!

وأحضرَ العربةَ أمام دكانه، واتجه نحو العجلة السليمة المُعلقةِ على جانب العربة، وخلال بضع دقائق انتهى من تركيبها بصمت. نفضَ الأتربةَ التي علقت بثيابه وهو يقول: لقد صبرت طويلاً على هذه العجلات، حاول أن تستبدلهم بأربع عجلاتٍ جدد، فلم يعد بهنَّ موضعٌ يحتمل الرقع.

- لا بأس، يحتملن عاماً آخرَ.

- أي عامٍ هذا الذي سيحتملنه؟! وحدي أنا خلال عشرةِ أيام مضت قمت باستبدال العجلةِ لك مرات عدة، تقوم بإصلاح واحدة، فتتعطل عجلةٌ أخرى، فلا يمضي الأسبوع إلا وقد رقعت الأربع عجلات. إنَّك تدفع على إصلاحهن أكثر مما سيكلفك ثمن الجُدد.

أطفأ أبو سالم سيجارته تحت حذائه مجيباً: لا أدفع إلا ثمنَ الرقعةِ خمس ليرات، وأصلحهنَّ في المنزل. يفرجها الله. ومدَّ يده إلى جيبه ليخرجَ منها ورقةً نقديةً من فئة الخمسمائة ليرة، وأعطاها لمهند مواصلاً كلامه: هذه دفعة الخميس أشكُرُ لك صنيعكَ معي، وأخذ يردد في سريرته وهو ينظرُ إلى بضعة أغصان يابسة تتدلى من الشجرة جانبه: خمس أسابيع وننتهي.

كانَ مهند جاراً له، في منتصف العشرين من عمره، شديدُ الجِبلَّةِ تحت عينيه نمشٌ قليل، له من الإخوة اثنان يكبرانه، وأخت تصغره في العُمر، وليس بين واحدهم والآخر من مسافةٍ في العُمرِ سوى

عام ونصف العامِ كأبعدِ تقدير. يسكن في منزل أبيه في غرفتين كانتا من نصيبه مع ما يرتبطُ بهما من مرافق تستلزمها المعيشة، وفي الطابق العلوي من المنزل مثلهما، يعيشُ فيهما أخٌ له مع زوجته وأبنائه. وضع مهند المال في جيبه، وقال وهو يُحضِر رَكوة قهوة من داخل دكانه: مازالت القهوةُ ساخنة، لك نصيبٌ أن تشاركني أنت بها.

- لو كان الأمرُ مكتفيًا على القهوة. ولكن أي جنونٍ بك، أي مسٍّ أصاب عقلك لتفعل ما فعلت؟! ألا تخاف على سمعتك؟! هل يرحمُ النَّاس فرداً انزوى عنهمُ وخرجَ على ضوابطهم؟ لن يرحموه، فإن رذيلة المرء بين أهله تسيءُ لهم أكثرَ مما تسيء لفاعلها.
- خرجتُ لأراها فقط، ثُمَّ جرى ما رأيته، عدا عن ذلكَ قُل لي: مَن سيرانا؟ الوقت مُبكِّرٌ والنَّاس نيام. صمت قليلاً، ثُمَّ شطحَ بكلامه إلى مكانٍ آخر: إننا جماعاتٌ نائمةٌ حتى في صحوها وتصوراتنا مبنيةٌ على الأحلامِ وليس على ما نراه، وعلى أي حال، ما زال الوقتُ باكراً لخروجِ النَّاس، ولا عليك في المرةِ القادمة، سأغلق على نفسي باب منزلي.

ابتسمَ أبو سالم، حسِبَه يمازحه ليتخلصَ من حرجَ موقفه، فلم يعبأ بقوله واستأنف: هذه مدينةٌ لا تعرفُ النوم، إنها مدينةٌ متيقظةٌ دائمًا، الهدوء أكذوبةٌ، والنَّاس يترصدون بعضهم بعضًا، ينتظرون

الزلّة ليتسلوا بمضغِ سيرة صاحبها والمساس من شرفه. لزاماً عليك أن تطهرَ الطرقات من رذائلك.

نهض أبو سالم بعد أن أخذ آخر رشفةٍ من فنجان قهوته، ودفع العربةَ يحدثُ نفسهُ آملاً بأنه سيشتري العجلات الجديدة في وقتٍ قريب.

وخلف المكتب الصغير في دكانه جلس مهند ينظرُ إلى الهاتِفِ بشوقٍ إلى سَماع رنينه. كانت هذه المرأة عشيقته مِنذُ أسابيع، ولم تكُن نفسها الشَبقة التواقة للمغامرة ترى حدوداً لتقفَ عندها. فكان يلازمها وتلازمه ما استطاعوا ذلك. قَطع انتظاره دخول أول زبائنه وتوالى بعده الفتيةُ والفتيات، ورجالٌ يطلبون عِلبَ السجائر، وأطفالٌ يشترون قِطعَ الحلوى من مصروفهم اليومي. إنها ساعةُ الذروة في العمل بالنسبةِ له. نَسي ما بهِ، كأي شعورٍ آخر يخمدُ بالانشغال. دخلت إليه أم سالم، وخلال رده للتحيّة عليها اتضح له من هيئتها أن أمراً ما دفعها للخروجِ بعجلةٍ من منزلها، فرداؤها غير معتدلٍ، وكأن غباشاً نزل على عينيها، فلم ترَ نفسها حينَ ارتدته. إنّه ومنذُ طفولته يوقّرها ويُحِبُّ بها شقاءها المكتوم الذي أحاطَ بها كهالةٍ منحتها الهيبة. بادرته بالقول: أُريد عبوةً لأي مادةٍ لديك تساعدُ في فتح مجاري المياه. تقدمَ مهند نحوها وهو يسأل رافعاً حاجبيه: لمصرفِ المغسلة

- لا... للمصرف الرئيس، مازال ماؤه يعود إلى المنزل حتى أغرق ساحته، لو رأيته، لربما فهمتَ ما أعنيه.

خرجَ وإياها مِن الدكان وأحكمَ الباب خلفه، وقد رأى ارتباكها، فأحبَّ أن يأخذَ بناصيةِ الأمر، ومضى معها يغذ الخطا حتى وصلا إلى البيت، فنظرَ إلى الساحةِ أمامه وقد أمدته الرائحة بالخبر قبل النظر.

***

أمام باب المدرسة أوقفَ أبو سالم عربته وقد بدأ الطلبةُ بالتوافدِ إليها، وسبقهم إلى مشارفها الباعةُ المتجولون، فيجد الطالبُ عند وصوله بائعي: الفول، والترمس، وغزل البنات، وشطائر الجبنة الباردة، والتسالي اللاتي لا تُحصر. ركنَ أبو سالم عربته وهو يلقي التحيةَ على أصحابه وكشفَ غِطاء حلة الفول، وراح يملأ الصحون الصغيرة بحبات الفول والأقداح بمرقته الساخنة وهو ينادي بصوتٍ طروب: (بخمسِ ليراتٍ صحن الفول)، ويتفنن بتلحين هذه الكلمات وترديدها والطلبة يلتفون حول العربة وهو يسعى بحركاتٍ ماهرةٍ لملء الصحون، ووضع ثمنها في جيبه، فتجد أحيانًا أن ثلاثةً أو أربعة من الطلبة قد تشاركوا صحن الفول الواحد، فلا يكون نصيبُ أحدهم سوى حبةِ فولٍ أو اثنتين ورشفة من كأس المرقة لذلكَ كانت الجمهرةُ كبيرة من حوله.

مَضت ساعةُ عمله وانفض الطلبةُ من حوله إلى غايتهم، ولملمَ بعض الباعة أحمالهم ورحلوا، وبقي البعضُ الآخر ينتظر ساعةَ انتهاء الدوام وخروج الطلبة إليهم من جديد. حينها أخرجَ أبو سالم كرسيه من صندوق عربته الصغير، ذاكَ الصندوق الذي يحتوي داخله معدات عمله وراحته وأداوت تعينه على قضاء يومه ورحلته. إن العربة بلونها الأخضر والخطوط البنية الضيقةِ اللاتي تزخرفها والجلد الداكن الذي يغطي سطحها وحبات الليمون المنثورة عليها بشكلٍ رتيب والمسامير الذهبية اللون التي دقت بها، والأطباق الزجاجيّة المزخرفة المصطفة بشكل أفقي متوازن كُلّ طبقٍ يسند الذي يليه أعلى العربة الهرمية والكؤوس الشفافة التي اتخذت مقاماً أخفض من مقامِ الأطباق، والتفّت حولها كزنارٍ من الشعاع الشَّمسي. كل تلك التفاصيل الدقيقة كانت تدفعُ المرء لتأملها كأنها قطعة فنية صُنعت بعناية ماهر.

وضع كرسيه على الرصيف جوار باب المدرسة وجلس ينفثُ دخانه. وهو كذلك مُثقل العقل خفيف الروح باردَ الجنبات خرجَ إليه رجلٌ من المدرسة، وألقى التحيةَ ومضى باتجاه العربة، فملأ لنفسه صحن فول، ورشَّ عليه بعض الكمون وهو يقول لأبي سالم: لا تقُم لا تقُم من مكانك، أخدُمُ نَفسي بنفسي. ثم وضع عشر ليرات بيد أبي سالم، وجلسَ على حافةِ الرصيف وهو يكمل قوله: عملتُ وأنا طفلٌ على عربةٍ كهذه، ما أسرعَ أفول الأيام كأنها

البارحة. عُينتُ مؤخراً معلماً هنا، ولا أطيقُ الجلوس مع المعلمين عند الفراغ من إعطاء الدروس كأني لستُ منهم. إنّ مُعلمِي هذه الأيام يفتقرون للانضباطِ العقلي، فيتساءل المرءُ عندَ رؤيتهم كيفَ لهذه الحفنة من المعقدين عقلياً أن يكونوا مرشدينَ للأجيالِ الناشئة؟!

فحدثتني نفسي بالخروج إليك وقد رأيتُك عند قدومي باكراً، ولم يكن من حُسن التصرف أن أقف جانب الطلبةِ لتناول طبق فول، فتضيعُ هيبة التعليم حينها! حياه أبو سالم وقد لاحظَ تناقضه بينَ الهجوم على زملائه ومحاذرته من المساس بهيبةِ التعليم، فضحكَ وأحضر له كرسياً وهو يقول ماسحاً على شاربه: قم، فاجلس على الكرسي إذاً؛ لتحفظَ للتعليم هيبته. أهلاً بك.

ضحك الرجُل وردَّ عليه: بدأ الأمر بالسخرية. إنّي جادٌّ في قولي، فهيبةُ التعليم كمنظومةٍ متكاملةٍ مناطةٌ إلى المُعلم، فإن مسّه ما يسيءُ إليه مسّها مثله.

قال أبو سالم: الحياة مسرحية ساخرة لا تأخذها على محمل الجد.

عرَّف المعلم باسمه، وكان يُدعى "تميم الحلبي" معتدِّل القامةِ ملتف الجسد ذو سمرةٍ خفيفة تزين وجهه لحيةٌ ناعمة، لهُ صوتٌ ثخينٌ مكتمل، قال بعد أن أنهى صحن الفول الذي بين يديه وأعاده إلى العربةِ: أبحثُ عن عملٍ بعدَ دوام المدرسة، في مجال الدروس

الخصوصية أو أكون سائقًا على سيارةِ أجرة، أو أيّ شيءٍ آخر، فإن كان لديكَ ما تساعدني به بهذا الشأن.

أجاب أبو سالم: ألا يكفيكَ الراتبُ؟

- نعم يكفي... يكفي للكهرباءِ والخبز، لكن لا يكفي لحفَّاضَات الطفلة.

- أن تكون لديك ابنةٌ ما أحسنه من نعيمٍ!

- وأيّ جحيم يتخطفُ الآباء حينَ يخشون أن يكبرَ الأطفال وتكبرُ معهم متطلباتهم التي يعلمون سلفًا أن لا قدرة لهم على تلبيتها؟!

- المال يرحلُ ويقفل... لتكن الصحةُ جيدة والعائلة بخير وكل شيء حينها هيّن.

- سنكون بخير فقط حينَ نتوقفُ عن اللهاثِ وراءَ رغيف الخبز. ويحكَ إلهي!! لقد انحنت ظهورنا قبل أوانها!

صمت أبو سالم للحظات، فإن كلام الحلبي له لامسَ شيئًا في أعماقه كأنّ ما تسمى الأقدارَ ساقت الحلبي ليقل ما يجولُ في أعماقِ أبي سالم، ولكنه لم يبح بذلكَ، وآثرَ أن يرمم كسرَ مُحدِّثه، فأجابَ بصوت رقيق:

- جميعنا نشتكي العوز وقِصَرَ ذات اليد، والأمر لله قسم الرزقَ على عباده بما ينفعهم.

ردَّ عليه "تميم الحلبي" وهو يتمايل طربًا:

دع عنكَ لومي فإنَّ اللومَ إغراءُ وداوني بالتي كانت هي الداءُ

- أبو نواس العربيد.

عدَّل تميم جلسته على كرسيه، وتابع يقول وقد أدهشته معرفة أبي سالم لأبي نواس: أو تعرفه.. ؟!

أضافَ أبو سالم:

صفراءُ لا تنزلُ الأحزانُ ساحتها لو مسّها حجرٌ مسته سرّاءُ

بالرغم من أنه عربيد كما قُلتُ لك، لكني أستسيغُ شعرهُ، ربما لأنه ذو لسانٍ حر يقُول ما بنفسه دونَ مواربةٍ. وإنَّ الحرَّ للحرِّ يميل.

هزَّ الحلبي رأسه متعجبًا، وَشطَّ بتفكيره لوقتٍ قصيرٍ تغيّرت به حالته وتجهّمَ وجهه، ثُمَّ استأنفَ بنبرةٍ مختلفة: اللعنةُ على الفقرِ، وألفُ لعنة على الفقراء، من لحمنا الطري صنعوا خزائنَ النقود الصلبة. وما الحلُ إلّا بأن تصبنا اللعنات لنهلكَ ويهلك كل الواقفينَ بثباتٍ على أكتافنا. إنَّك وحسبما أرى لأدرى النَّاس بأن إيجاد مصادرِ دخلٍ أخرى لن يجدي معنا نفعًا، الأمر أشبه بأن تأخذ مُسكِّنِ آلامٍ، فتخف أوجاعكَ بعضِ الوقت، ثُمَّ يجمحُ جسدكَ طالبًا جرعاتٍ إضافية، فتزوده بها حتى يستفحلُ الألم يومًا ما وتهلكَ. فهذا علاجٌ مؤقت يصلحُ لبعض النَّاس في نطاقٍ ضيقٍ، إذ ليس كُلّ رجل منا بقادرٍ على أن يعمل عملين اثنين في يومه، إنّ الفردَ منا يبدأ عمله مع شروق الشَّمس إلى ساعةٍ متأخرة

من الليل. ومع ذلك الجهد والوقتِ المبذولين، فنحنُ فقراء، وسنبقى كذلك. فلا ساعات العمل الطويلة تنتشلنا من بين أيادي الفقر الخانقة، ولا نحن لدينا الوقتُ أو المال أو القدرة الجسدية لنختلقَ لأنفسنا ما يكفينا العوزَ ويُبقِي على إنسانيتنا. ونحن ولا يخفى على عاقلٍ أننا بلاد خيرٍ ووفرة، فلِمَ نتعفن في أقبيةِ الفقرِ إذا؟! ولأكون صريحًا أشدَّ الصراحةِ معك: إنني لا أجدُ عقلي قادراً على الفهم. هل الفساد في أنظمة الدولة هو من أوجد ووسع الطبقة الفقيرة أم أن الفقر هو من أوجد الفاسدين؟! لا يهم على أي حال، المهم ألّا تنسى لي أمر العمل، فلم أترك أحداً من معارفي إلا وسألته أن يجد لي عملاً، لكن دون نفع.

عضَّ أبو سالم شفته وهو يربتُ على ركبة الحلبي ويقول له: دعكَ من هذا الكلام؛ فللحائط آذان يسمعُ بها. سأجدُ لك عملاً، أوكل الأمر لي وهو عليَّ هين يسير إن شاء الله. تعالَ إليَّ مساءَ اليوم، بيتي على مقربةٍ من هنا في الحارة الثانيةِ بعدَ المسجد، اسأل عن منزل "أبو سالم".

أجابَ الحلبي: منذُ دقيقةٍ كُنت تقول: إنَّ الحُرَّ للحُرِّ يميل. وتُحبُّ بأبي نواس لسانه الحر، وتُريد أن تلجم لساني.

- الأمرُ مُعقد أكثر مما يُخيَّلُ إليك.

(2)

لم يَكُن بمقدورِ مُهند أن يَفعلَ شيئًا، أن يحلَّ المُشكلةَ أو أن يخفف من هولها فساحةُ المنزلِ قد غُمرت بالمياه العادمة وأرضها تلفظ الماء، وكأنَّ ينابيعَ قد تفجرت تحتها. أدركَ أن أنابيبَ الصرف الصحي قد بَليت، وأن لا حلَّ سوى إعادة تأسيسها من جديد، وذلكَ عملٌ يحتاجُ إلى أموال وأيام. أشارَ على المرأة أن تأتيه بدلاءٍ فارغة، وأن يتوقفوا عن استخدام الماء في المنزل. وراحَ بمساعدة أم سالم وابنتها بثينة يملأ الماء من أرض الساحة ويفرغها في الشارع بين أرجل المارة. كانتَ بثينةُ تَعملُ بجدٍّ وخجل من حالتها، ماءٌ قذر، ورائحةٌ بغيضة، وجهها الذي لم تنظر إلى المرآة لترى حالته. هي فتاةٌ في أول العشرينيات، وحيدةٌ لأبويها، أنهت دراستها الثانوية، وجلست تُحيكُ من الفراغِ أخيلةً للغدِ تعينها على قضاء يومها.

قاطعهم شقيق مُهند الأكبر حين رآه يفرغ الدلو خارج المنزل: أنت هنا والدكان مُغلق؟!

لم يحر مهند جوابًا، إنما رمقه بنظرةٍ لا مبالية، وعاود الدخول إلى الساحة ليستأنفَ عمله، لحقه إلى الباب وهو يقول مشمئزاً من الرائحةِ ومتنقلاً على رؤوس أصابعه: لن يُجدي عملكم نفعًا، فالماءُ ينبعُ من الأرض، ويبدو أنَّ الصرف الصحي للحارةِ برُمتها يعود إلى المنزل. عليكم إصلاحه بادئ الأمر. لَم يَكد ينهي قوله

حتى بدأت المياه تتدفق مِن مَنهل المياه في منتصف الشارع تصديقاً لقوله. فتابع وهو يُشيرُ إلى المنهلِ: سأتصلُ أنا بموظفي المحافظة؛ لإصلاحه، هاتِ مفتاحَ الدكان. لقد كان المنزلُ الذي يسكنه مهند وأخوه أحمد على الطرفِ الآخر من منزل أبي سالم، فهُم جيرانٌ يقابل بابهم بابه، ومع ذلك لم يكن منزل مهنّد قد لاقى تأثيراً من هذا الخلل الذي طرأ على الحي بمياه الصرف إلا تأثيرَ الرائحة التي وصلت إلى كُلّ البيوت ووحده منزلُ أبي سالم الذي نالَ الجزءَ الأكبرَ من المصيبةِ.

مشى مهند جوار أخيه بعد أن ودَّع أم سالم بعينيه، وغذَّ الخطا وهو يقول: افتح أنت الدكُان، سأرسل مَن يأتي بأبي سالم، فلن تُفلحَ المرأة وحدها.

ولم تمضي دقائق حتى عادَ إلى الدكان وهو يسأل مع دخوله: هل اتصلت بشكاوى المحافظة؟!

- سيتصلُ أهلُ الحارة بهم، ألم ترَ أن الجميعَ متضررٌ، وعلى أي حال لن يرسلوا عمال الإصلاح إن لم يذهب أحد المتضررين ويدفع لهم.

قال مهند وهو يفتح دفتر الهاتف، ويبحث عن رقم طوارئ المحافظة: رشوة... !! أتظن أن أبا سالمٍ بوسعه أن يدفعَ رشوةً لهم ليأتوا، ليس بوسعه الدفع لإصلاح عجلات عربته.

- لن يأتوا...!

***

اعتادَ "أبو سالم" أن ينتظر انتهاءَ دوام الطلبةِ، لكنه ما إن أنهى حديثه مع تميم الحلبي حتى جَمَعَ أدواته ودفع العربةَ ساعيًا في سبيله. ينادي على بضاعته بين الفينة والفينة. أعجبه الحلبي كان واضحًا كاستغاثةِ الملهوفِ في هدأة الليل ومألوفًا مثل الوجوه المتعبة وبدافعٍ لا يعلمُ منبته أرادَ أن يمدَّ له يد العون، فكان أول ما تبادر إلى ذهنه صديقٌ يعملُ في البناء، (ومثل هذا العمل يكون بحاجةٍ إلى عمالٍ جدد بشكلٍ دائم)، كذلك حدّث نفسه وهو يقصدُ ورشة صديقه، وبعد أن وجد صديقه في ورشة الإنشاءات قصَّ عليه حاجته ونال إجابةً سريعةً كما توقع: ليكُن مثلما تُريد، دعه يبدأ العمل مِن فجر الغد.

– فجر...! أخبرتُك أنه مُعلم، وأن هذا العمل سيكون عمله الثاني، لن يستطيع أن يأتيكَ فجراً، فعمله في المدرسةِ يبدأ من السابعة صباحًا إلى ما بعد الظهر.

– يا أبا سالم... إنك لتعلمُ حالَ عملنا وطبيعةَ أحوالنا، فنحنُ نعملُ مِنَ الفجرِ إلى ساعة المغيب، إن ناسبه ذلكَ، فأرسله إليّ.

قاطعه أبو سالم: دعه يأتكَ نصفَ نهارٍ... بنصفِ أجرة، وأنا كفيلٌ بأنك ستُسرُّ به.

– لن يستقيمَ الأمر هكذا، فساعة خلاصه من عمله وقدومه نكون قد انتهينا من العمل أيضًا. هاكَ فانتظر عندي ساعةً

سَتَجد أن العمال شرعوا بالعودة من الأعمال التي أرسلتهم إليها.

- والحل...؟

- تَعلمُ أني وددتُ تلبية طلبك، لكن ما باليدِ حيلة.

خرجَ أبو سالم خالي الوفاضِ إلا من خيبته، كان متيقناً أنه سيجد الحل عند المعلم عبد القاهر، فأنّبَ نفسه اللحوحةَ حينَ أحسَّ بانقباضها: لا تأملي شيئاً حتى وإن كان بين يديك.

ولم يبتعد عن المكتب بضعَ خطواتٍ حتى عاد منفرجَ الأسارير ينازعه الأمل من جديدٍ على غير محبةٍ منه، فطفقَ يقولُ وقد غلبه أمله: عبد القاهر أتيتُكَ بالحل، ولكن إياك أن ترفضه، أرجو منكَ ذلكَ على الأقل. أجلسه عبد القاهر وبقلبه بعضُ الحرج منه، وقدم له كأسَ ماءٍ كانت بيده، فتابع أبو سالم: إنك لتَعملُ هنا على إدارة أمور عملك كلّها، فتقابلُ زبائنك وتتفق معهم، وتسعى خلف مورديك، وتوظف، وتُسرِّح، وتُشرف على مستودعاتكَ وعلى سير العمل كأنك أخطبوط بثمانية أذرُع، فلِمَ لا تدعه يحملُ عنكَ شيئاً من هذا الحِمل؟

كان المعلم عبد القاهر سميناً لحيماً تتدلى خواصره عن جوانبه، وله بطنٌ ممتلئ يسبقه حين يمشي، ويسنده حينَ يُمسي في العقد السادس مِن عمره، صعب المراسِ سريع الهيجان، ولهذا هجره أبناؤه في العمل، فبعد أن سئموا غضبه وسئِمَ صحبتهم عَمدَ

إلى إرسالهم مع العمّال في الورشات اليومية، فلا يراهُم إلا وقتـًا قصيراً يحاول أن يمضيه دونَ مناكفات معهم.

كـانَ يخاطـبُ أبنـاءه في حُميئـات غضـبه قـائلاً: إرضـائي لـيس صعبـًا، لكنكم لا تعقلون، نفذوا ما تُؤمرون به، ولا تجادلوني برأيٍ طرحتـه أو عمـلٍ طلبتـه، وعلـى هـذا بقـي في ورشـته وحيـداً، هـذه الورشة الكبيرة المتخمة بقُضبانِ الحديد وخشـبِ البنـاء، يتموضـع في عمقهـا الـداكن مكتـبٌ صـغيرٌ علـى جانبيـه كرسـيان موشـحان بالسواد. اهترأ جلدُ أحدهما، فبان الإسفنجُ من زاوية مقعده.

أسند عبد القاهر خدّه على راحة كفه، وغاب عن حاضـره بُرهـة وهو يتأملُ ثيـابَ أبـي سـالم الـذي كـانَ جـاره قـديمـًا، فـرأى رجـلاً عركته الأيـام، وبـدلت أحوالـه، فتنهـدَ مـلء صـدره بأسـى، ثـم قـال مستفسراً: والمعنى...؟!

- المعنى... ليأتِ إليكَ بعدَ ساعة العصر، فيُنظمُ حسـاباتك، ويُهذبُ دفاترَ عملك، ويجردُ بضاعتكَ، ويـدونُ مـا يـدخُل إليكَ، وما يخرجُ مِن عندك.

عملٌ نظيف له، وأنت بحاجته.

- الآن أصبحتُ بحاجة مَن يُنظم عملي ويُشـرفُ عليـه، أبعـدَ أربعين عامـًا؟! حسنـًا لـيكُن، أرسـله إليَّ لأراه وأعـرفُ مـا يناسبه، وليكن خاطركَ مجبوراً في كُل حال.

سُرَّ أبو سالم؛ لأنّه نالَ غايته بهذه السرعة، وصمتَ، ومن عينيه ينبعثُ الامتنان إلى أن دَخلت نسمةٌ رخيّة داعبت خديه وأصحته مِن ثباته، فخرجَ من الورشةِ لدقائقَ، ثُمَّ عاد وبين كفيه صحن فولٍ وكأس مرقةٍ قدمهما لصاحبه، فقد أراد أن يُظهرَ امتنانه وشكره، فكانَ صحنُ الفول وسيلته، وهو خير ما يرتجيه المرء في أيام الشتاء.

كانَ أبو سالم في شبابه مِن عائلةٍ ميسورة الحال تعيشُ في رغدٍ وعلى وتيرةٍ من الهدوء والطمأنينة، فلم يكُن ليتوقع أحد أنه وهو الشاب النضر والشعلة المتقدة بالحب والشوق إلى الغد سيمضي بقيةَ حياته على عربةٍ لبيع الفول يكدح طوال يومه؛ ليؤمن رغيف الخبز لعائلته. لذلكَ كان كُلَّ من عرفهم في شبابه ينظرون إليه بشفقةٍ وعطف.

بادره عبد القاهر بالسؤال وهو يأخذ من يده كأس المرقة: أخبرني هل ترى أخاك زياداً...؟! غصَّ أبو سالم بهذا السؤال، وزالت تلكَ البسمة التي حطّت على وجهه منذ قليل وتسربل بالهمِّ...! وبعد صمتٍ أجاب: هذا كلبٌ ضال، أو قل: شيطانٌ مجبولٌ بالخُبثِ، فرؤيته أو الحديث عنه يجلبان الشؤمَ، فدعكَ من ذكره.

– لكن ألم يحنَّ قلبه؟ ألم يصحُ ضميره ليصنع ثقباً في جدار الجفوة الذي بينكما؟

- لو رضخ يومـًا لوازع الضـمير أو تـذكر الـرحمَ الـذي جمعنـا، لما جرى منه ما كان. والآن وبعد أفول العمر لم أعـد أرجـو منه شيئـًا.

- عليكَ أن تنسى.

- النسيانُ سِمةُ الموتى! وها أنا حي. خذ يدي وتحسس نبضـها إن لم يكن بملامحي ما يدلُ على الحياة. مدَّ عبد القاهر يده فوق يد أبي سالم قائلاً: أنا أخوك.

حينها نهض أبو سالم وغادرَ دون أن يلتفت.

***

مشى إلى أن ابتعـدَ كثيـراً عـن حارتـه وعـن الأمـاكن التـي اعتـاد الوقوف بها للبيع والرَّاحة، أخذ يمشي دونَ أن يعرفَ اتجاهـًا لسيره ولا ينادي على بضاعته إلا بين الحين والحين، فالحديثُ عن أخيـه رمى الحطبَ في نارِ فؤاده، فاستعرت، وجعله بمواجهـةٍ حتميـة مـع واقعه بعد أن كان مُخدَّراً بشقائه ويعيشُ راضيـًا. منـذ سـنواتٍ كـان يحاولُ أن يستعلِمَ أحوال أخيه ممن يعرفونـه، فيسـمعُ عنـه مـا يسـرُّ أذن الصـديق، ويشـعلُ غيـرةَ الحاسـد. وفـرةٌ في المـال، وراحـةٌ في الحياة، وأعمالٌ تسيرُ دون عائقٍ لها، وذريةٌ ما عرفت الحرمان، ولا ذاقـت يومـًا طعـمَ البـؤسِ، فتُثقـلُ علـى صـدره هـذه الأخبـار حـينَ يضعها موضعَ المقارنة بحالـة الضـيقَ. يُثقـلُ عليـه أن يكـون مفـرداً

وضئيلاً يحمِلُ أثقاله مثل حصاة في حدوةِ الفرس متناهية الصِّغر والحملُ باذخ! فأخذَ على نفسه ألّا يفكرَ به، وألّا يقتفي أثره.

حين امتدَّ الظلام فوقَ عمران المدينة وانتشرَ في أزقتها آب راجعًا إلى حارته والكمدُ يملأ تفاصيل وجهه ويقطرُ من أنفاسه القصيرة، فلقيه مهنّد عند مدخلها والماءُ المعدمَ يجري تحتَ قدميه، حاولَ أن يخفِّف شدّةَ الخبر بابتسامةٍ مزيفةٍ على فمه وهو يقول: أهكذا تشقيني بالبحث عنك؟ أينَ كنتَ طوال اليوم؟!

(3)

بالضحكات الهادئة امتلأت أجواء المنزل، وتميم الحلبي يلاعب طفلته وروحُه تضحكُ معها ناسيًا بهذه اللحظات كُلّ شيءٍ آخر، فحين يعبثُ كفّاها الصّغيران بخديه يكونُ لعبثهما تأثير السحر عليه، فتشفى نفسه من كُلِّ همٍّ أصابها. وهو كذلك الآن مغمورٌ بنشوته دخلت إليه زوجته وبيدها فنجانُ قهوةٍ لها أعدته لتوها واستكانت إلى المدفأة، وسرعانَ ما انتشر عبق القهوة في الغرفةِ الصغيرة، فتضاعفت لذةُ الطعمِ حين رافقتها لذةُ الرائحة... بقيت صامتة تشربُ على مهلٍ من فنجانها وهي تنظرُ إلى زوجها وابنتها وتضحكُ بتأثيرِ ضحكهما وحين استقرَ بنفسها انبساطُ زوجها واعتدالُ مِزاجه خاطبته بتردد: حين تستلمُ راتبك في نهاية الشهر أخبرني، فربما استطعنا أن نسدَّ شيئًا من ديننا لشقيقتي، لقد وعدتها بذلك، وبتُّ أخجل منها لتثاقلنا بالسداد بالرغمَ من أنها لم تأتي على ذكرِ شيءٍ، ولكنه في النهاية يبقى حقها، وإن صمتت عنه، فلربما استطعت أن أبتاعَ لنفسي معطفًا جديداً. ولم تكد تُكمل جملتها حتى طرأ اختلافٌ على جو الغرفةِ الوادعِ، فقد وضع الحلبي ابنته من يديه، ونهضَ مجيبًا بحدةٍ: كم مرّة يجبُ عليكِ تذكيري بهذا الأمر حتى تكفّي عنه؟ ألم تملي من تكرارِ الكلام نفسه، أم تراكِ تحسبينَ زوجكِ خرفًا لا يستقرُّ برأسه شيءٌ مما يسمع؟

أجابت رشا: لستَ بالخرِف، ولكنّكَ ما لتزمت يومـًا بكلمتكِ، وغداً حينَ يأتي أول الشهر ستجد ألف حجّةٍ لتتملصَ من الدفعِ.

- فأنا إذاً لستُ بـالخرف، ولكني مـواربٌ محتـال... هـذا مـا كانَ ينقصُ وصفكِ ليكتمل معناه. ألا تري مـا نحـنُ فيـه... من أين أدفع ديني وأسـدّد التزامـات المنـزل؟! هـل أوارب لأستمتع بالمال؟! ماذا سيحتَمِلُ هـذا الراتـبُ الحقير أكثرَ من ذلك؟!

أجابت رشا وهي تقوم لابنتها التي بـدأت بالبكـاء: لـو شـاءتَ، لكان الحال أفضل مما هو عليه، فبدلاً من أن تنام بعد عودتـك مـن العمل، قم وابحث عن عملٍ آخر يعينك ويعيننا. فهـذا مـا وعـدتني به، ووعدت به أبي قبيل الزواج، قلت: إنك لن تعتمد على راتبك من التعليم، وأنّ الحالَ سيكونُ أفضل مما هو عليه الآن.

وما الذي جرى؟! عملتَ لشهرين بعد زواجنا، ثُمَّ أعرضت عن الأمر.

أضاف الحلبي وقـد شـرعَ بارتـداء ملابسـه علـى عجـلٍ ليغـادر: نعم، وعدتك، ولكنّـي قـدّرتُ أنـك ستكونينَ مدركـةً أبعـاد الحيـاة وواعية لتقلباتها، فتساعديني عليها لا بشـيءٍ، إنّمـا بصـبركِ وحُسـن تقـديركِ، لكنـك والله كـائنٌ جُبـلَ علـى النكـدِ والنكـران، والأريـبُ الفطن مَن أصمَّ أذنيه عن حديثكِ، وتحاشى مجلسـاً أنـت بـه حتـى وإن كانَ بيته.

أضافت رشا: ما مِن إنسان يُحب أن يملأ بيته نكداً، ولكن إن لم يحمّل الرجل همَّ أسرته، فقل لي: من سينوبُ عنه؟! وها أنتَ كعادتكَ ما إن أنطق بكلمتين حتى تهمَّ بالمغادرة.

لم يجبها، واكتفى برقع الباب خلفه.

***

بقيت وحدها تهدهدُ لابنتها بيدين مرتعشتين كانت تقضي أيامها وحيدة، تصحو فتنجزُ ما عليها من شؤون البيت على مهلٍ وبرويّة مملة حتى يمضي النهار. فإن عادَ زوجها من وظيفته تناول طعامه، وخرجَ، أو اضطجع ونامَ. ولا تمضي ليلة إلا وتعلو أصواتهما لتُسمع الجيران، فلم ينعما بيومٍ صافٍ منذ أشهُر. جلست جانب المدفأة وقد أطفئت نورَ الغرفة التي تأويها، وأنعمت النظر في لسان النَّار وهو يتمايل في قلب المدفأة مثلَ راقصةٍ ثمّلة بنغم شجي. أيُّ سرٍّ في النَّار حتى إذا ما وجدت توجهت إليها جميعُ الأبصار، النَّار تَحرِقُ ولا تُحْرَق، وللإنسان قابليّةَ الحرقِ والاحتراق كُلَّ يومٍ ودون أن يمسَّ النَّار، ألذلكَ نقتربُ منها؟ نعبثُ بها، ونغرقُ أبصارنا في قيعانها هازئين بقدرتها، أم لأنَّ داخلَ ألسنتها بواباتٌ مشرعةٌ على الماضي وأخرى على المستقبل تجذبنا عنوةً وتوغل بنا بعيداً.

وعلى تأملّها الهادئِ ظاهره استمرت رشا في جلوسها، كان يقتلها الفراغُ ويتسلل كسارقٍ إلى أعضاء جسدها، فيسلبُ طاقتها،

فلا تَعلمُ في هدأة الليل من أين تتوالد بها القوة لبدء مشكلةٍ مع زوجها، فتجدُ نفسها في ساعةِ الصفاء قد أدركتَ سوءَ فعلها معه، وعبث قولها له، فتأخُذ على نفسها الميثاق بأن تُهدِّئ من ثائرتها، فلا تمضي الساعةُ حتى تعاود الفعل من جديد، وقد حاولت أن تمضي هذه الليلة دونَ أن يتصادما حولَ أي شأنٍ من الشؤون، ولكنّه سبقها، وكان ردهُ عليها شديداً، ولسببٍ ما شعرت هي بالذنب. وأخيراً ابتسمت وهي تهمسُ لنفسها بصوتٍ خافت: حين يعود أعلمُ كيفَ أرضيه.

***

قصدَ الحلبي منزلَ أبي سالم، فقد تذكر ما جالَ بينهما من حديثٍ صباحَ اليوم، فمضى باتجاهه وسيّانِ عنده الآن إن أخلف أبو سالمٍ وعده أو أوفى. كان أبو سالم في هذه الأثناء قد وصلَ بيته، وراحَ يُفكرُ مليًا بحلٍّ يُنهي المصيبة التي أصابته ليستطيعَ تجهيز قِدرَ الفول ليوم الغد. ولكِن ما حيلةُ الضرير وقد بُترت يداه؟ بدأ بحفرِ ثقبٍ أسفل الجدار في ساحة بيته لينفذَ الماءُ إلى الخارج ويستطيع بعد أن يخفَّ الماء من ساحة المنزل إدخالَ عربة الفول إليها لتبدأ زوجته وابنته بتجهيزها ليوم الغد.

حين وصلَ تميم الحلبي مشارفَ الحارةِ توقفَ مصادفةً عند دُكان مهند ليبتاع لنفسه علبة سجائر، وهناكَ سأله عن منزلِ أبي

سالم، فأجابَ مهند وهو يشيرُ إلى أخيه بأنه سيخرج: تعال معي إن كنت تقصده، إني ذاهبٌ إليه.

ومشى الحلبي جانب مهند الذي تابعَ يقول: آهٍ على أبي سالمٍ لا يعلمُ من أين تأتيه المصائب. لم يستفهِمِ الحلبي عمّا قاله مهند، إنه معتادٌ على سماع تلكَ الشكاوى، لم يستعجِبِ، فحسبَ رأيه كُلُّ من حوله أرهقتهم البلايا ومن ضروب العجبِ أن نستعجبَ في حال رأينا أحداً في خضم البلايا، إنما تكون الدهشة إن رأيناه في رغدٍ وهناء. كانَ معتاداً على مواجهة الحياةِ بالشعرِ، كُلُّ حدثٍ في دنياه له بيتُ شعرٍ يوازيه أو قصيدة تقفُ له موقف النّد. إنهُ مفتونٌ بالشعرِ، قديمه وحديثه، فكان النَّاس ينصتونَ له أول الأمر بمتعةٍ خالصة، ثُمَّ يضيقونَ منه ضيقَ أيّ إنسانٍ من المجهول، فالخرق بين النَّاس والقصيدةِ امتدّ حتى نسي كل طرفٍ أنه اتصل يوماً بالطرفِ الآخرِ، وكانا كياناً واحداً. دمدم الحلبي بصوتٍ خفيض:

رماني الدَّهرُ بالأرزاءِ حتى ... فؤادي في غشاءٍ من نبالِ
فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ ... تكسرت النِّصالُ على النِّصالِ

وإذ وصلا وجدا أبا سالمٍ عند الباب لم ينتهِ من معالجةِ الثقبِ في الجدار، رمى أبو سالم ما كان يشغل يده وأقبل إليهما فرحاً برؤية الحلبي، يقول ملء فمه: حللتَ أهلاً يا تميم، كنت في بالي الآن.

- حُييت يا أبا سالم، عساه خيراً.

نادى أبو سالمٍ على زوجته بأن تصنع لهم الشاي، وسحبَ كرسيين إلى ركنٍ لمَّا يكن الماء قد وصله بعد. طوّقه الخجل مما كان فيه، فراحَ من فوره يقول: وجدتُ لك عملاً، وتستطيع أن تبدأ به من الغد.

- حقـًا..! لم أعتقد أنك ستحلُ الأمر بهذه السرعة
- ولكنّي وعدتُكَ وشاءت الأسباب، فكان الأمرُ سهلاً.
- بالله حدثني ما حالكَ هذا؟ أتحتاجُ مساعدة؟
- لا أعلمُ ما أقولُ لك... كما ترى مصرف الماء العام مغلقـًا وماء الصرف الصحي للحارة يعود على منزلي، فيخرج من أنابيب الصرف عندي واضحٌ أنها بليت، ولم تحتمل ضغطَ الماء.

قال مهند مازحـًا: كُلُّ شيءٍ لديكَ مهترئٌ، أنابيب الصرف وعجلاتُ العربة، وأخشى أن بجسدكَ ثقوبـًا تحتاج إلى من يسدها.

ابتسم أبو سالمٍ، بينما قطّبَ الحلبي حاجبيه: ما الحلُ إذاً... ستضرُّ هذه الرائحةَ بأهل بيتك.

- سننتظر عمال المحافظة غداً ليحلوا مشكلة المصرف، أما تغيير الأنابيب في المنزل، فسيحتاجُ عملاً طويلاً. فإن حلّت المحافظة مشكلة المصرف العام خف الضغطُ على الأنابيب، وأصبحَ ممكنـًا أن أؤجلَ إصلاحها لوقتٍ آخر.

***

دخلت أم سالمٍ غرفتها بعد أن أعدت الشاي لزوجها وضيوفه، كانت ابنتها متكورةً على نفسها تجهشُ بالبكاء وهي تحك كتفيها لتمنحهما الدفء، وتخرج البرد الذي عشعش بجسدها طوال اليوم وهي تلعن بصوتٍ متقطعٍ البردَ وحالهم الذي يأبى أن يتغير. لم يكُن بكاءً من وقع البرد بها في حقيقته، إنما تذكرت حالها الذي رآها به مهند صبيحة اليوم، فقد سمعت صوته الآن، فنفر دمعٌ من عينيها كانت تكتمه طوال يومها، وشعورٌ انتابها أحست به كأنها فضلةٌ من طعامٍ مرميةٌ جانب الطريق لا ينظرُ لها أحد وهزتها نظرةُ العطف منه، فأحاطها الكمدُ وضغطَ على نفسها. قالت تُحدثُ أمها بما يشبه الرجاء: بعد اليوم لن أذهبَ إلى الدكان، فلا تطلبي مني ذلكَ أبداً. أجابت الأُم مستعجبةً: ما لنا ولحديث الدكان الآن!! ما الذي يبكيك...؟

- لا شيء... إنما البرد... البرد الذي لا ينتهي... وبؤسنا الذي لا ينتهي وأيامنا المتوالية بنمطٍ عصيٍّ على الاحتمال، نهارٌ شاحبٌ وليلٌ لا يعرف الدفء.
- دعكِ... دعكِ من بلاهتك هذه، وإياكِ أن يرى أبوكِ دموعكِ، أو يسمع تذمرك. يكفيه من ضنك العيش ما به.
- هكذا إذاً.... ألا يحق لي القول: إني متعبة؟

– مماذا أنت متعبة؟ فوالله لو رأى الرائي عيناك الباكيتين، لحسبَ أنّ مصيبةً ما حلّت علينا، قومي فاغسلي وجهكِ... كفاكِ تذمراً.

كانت أم سالمٍ سهلةً ودودةً خارجَ بيتها وعسرةً شديدةَ الطبع مع ابنتها. متناقضة الحال والصورة. ومن النسوة الدمشقيات اللاتي يسبلن على أزواجهن رداء الألوهية في غيابه. أما ابنتها بثينة، فكأنها مزيجٌ من والديها، فلها عنفوانُ أبيها ولينه، وتطغى على لسانها في معظم الأحيان صلافة لسان والدتها، فتراها قد تشربت أطباعهما، فلا تدري بأي الخصال تتكنى، وكما تقاسمت طباع والديها، فإنها قد تقاسَمت ملامحهما أيضاً، فأخذت طولَ أمها المعتدل، ومسحةَ العينين والحاجبين، وشبهاً من أنفِ أبيها المدبّبِ، وزادت أنها امتلكت لثغةً رقيقةً بحرفِ الراء لم يستطع أحدٌ أن يقنعها برقّتها، ويزيلُ الخجل المستوطن أعماقها من هذه اللثغة.

***

بادرَ الضيفان بمساعدة أبي سالم، فراح تميم الحلبي يُكملُ الثقب الذي بدأ أبو سالم بثقبه أسفل الجدار، بينما قام مهند بتنظيف زاوية الساحة التي تركن بها عربة الفول. كانت تلك الزاوية مغطاةً بغطاءٍ بلاستيكي تصطفُ تحته العربة في المساء، وجانبها برميلٌ أزرقُ له غطاءٌ أسود لنقع الفول قبل سلقه.

أخذتهما الحمية وراحت تُدفِّئُ أجسادهما وأبو سالمٍ يتراكضُ بينهما ملء قلبه امتنانـًا وخجلاً، وقد أدرك تميم خجل أبي سالم، فجعل يتسرعُ الخروج من المنزل ومفارقةَ المكان ليزيحَ الحرجَ عنه، ولم تمضي ساعةً واحدة حتى انتهوا مما بدأوا به. فقال أبو سالم والشكرُ يتدفق من عينيه: مَضى الأمر على خير. شكراً لكما.

ردَّ الحلبي: المطرُ أساسُ البلاء، فلو لم ينقطع من عصر اليوم، لما استطعت أن تفعل شيئـًا.

تدخل مهند برعونةٍ واضحةٍ: النَّاس تصلي لربها ليرزقها المطر وأنت تصفه بالبلوى...!

- لم أقصد ما فهمته أنت، بل قصدت أن المطرَ زادَ من سوءِ الأمر هنا.

تدخل أبو سالم ضاحك القسمات: الأمر كله محصورٌ بتمديدات تصريف المياه، قد أكل عليها الدهر حتى بليّت.

بقي الحلبي في حرجٍ من أن يسأل عن تفاصيل عمله الذي وجده أبو سالم، فكانت الكلمات تترنحُ على شفا لسانه، ثُمّ يبتلعها وذهنه في شُغُلٍ بها يقلبها ويمحصّها. وأما أبو سالم، فقد ضاعَ الأمرُ من عقله في زحمة ما كان به، وهُم كذلكَّ عند الباب ينفضون ما تعلق من الغبار على ثيابِهم، ويسدلون أكمامهم اللاتي شمّروها إلى المرافقِ باغتهُم رجُلٌ في العقد الخامس من عمره، وللحظةِ الأولى بثَّ الخوف في قلب الحلبي حين رآه يهجُمُ على أبي سالم

إلى أن تبيَّن أن هذا الهجُوم غير العقلاني كان مقصده العِناق فقط، فأخذَه بذراع واحدةٍ يعانقه ويقبِّلُ رأسه وهو يغمغم بكلامٍ غير مفهوم، وأبو سالم يهدِّئ من انفعاله، ويطلبُ منه الجلوس. فتدخّلَ مهنّد ليزيلَ الحيرةَ التي ظهرت على الحلبي، فقال وهو يشيرُ إلى الرجُل الذي جلسَّ وخبّأ يده اليمنى داخلَ عبّه: هذا هو يحيى المجنون، صديقُ الجميع في هذه الحارة؛ ولأنه رآكَ غريباً عن الحي أتى ليعرفّكَ أنَّ أهلَّ هذا الحي أصدقاؤه ويحبونه، حتى لا يخطر لك في يومٍ من الأيام أن تؤذيه. هذه عادته، حين يشعُرُ بالأغراب يجوبون الحي يسرعُ إلى أصدقائه، فيعانقهُم ويمرّغُ وجهه على صدورهم ليستأمنَّ على نفسه. من الذي يعلم ما الذي يدور في عقله حولكَ الآن؟

إنّ يحيى المجنون وبمعطفه الجوخ الذي يلامس ركبتيه مع وجود لطخة طينٍ طوال الشتاء أسفل ظهره الذي لم يدرِ أحدٌ كيفَ حصل عليه ويده اليمنى المشدودة دائماً إلى صدره كان من علامات الحي البارزة ومن تفاصيله التي اعتاد أهل الحي على وجودها. ففي الأيام القليلة التي كان يختفي بها عن الحي دون أن يعرفَ أحدٌ مكانه كانوا يشعرون بأن شيئاً أصيلاً من خلطةِ عيشهم قد فُقِد، وبأن اختلالاً قد أصابَ ميزانَ عيشهم الدقيق. كانوا يعطفوا عليه بشكلٍ يدعو للحبور وعلى أمه التي أوشك العجزُ أن

ينال من جسدها، والتي بقيت بالرغم من تسلل العجز إلى مفاصلِ بدنها تقاوم لتمده بما تستطيع من العناية.

طوله البارزُ كمحاربٍ، وعظم صدغيه النافرين في رأسه، وعيناه السوداوين النجلاوين في وجهٍ تمتدُّ به لحيةٌ خفيفةٌ بيضاءُ تتصلُ مع شعر رأسه بالطول القصيرِ ذاته، كل تلكَ الملامح كانت حينَ تقومُ أمه بتهذيبِ لحيته وحلقَ شعرِ رأسه، واستحمامه كُلَّ أسبوعين في أقلِّ تقديرٍ كانت تلك الملامحُ تجبرُ النَّاس على النظرِ إليه بحسرة بالغة. يقولون: (لو بقي لك عقلك، لكنت من زينة الشباب)، لكن وعلى الرغم من امتلاكه ملامحَ يتفوقُ النَّاس على ملاحتها، ويحبُّون رؤيتها، إلّا أن من ينظرُ في عينيه مليًا يصبهُ الفزع. عينان مثلَ بئرٍ لهما عمقه ووحشته، وفي عمقهما اللامتناهي يشعرُ الرائي أن أياديَ ستمتدُ منهما لتتخطفه، وأنّ جحوراً ستنسلُ منها الأفاعي لتنفثَّ سمها في عيني المتأمل فيهما. وأن صرخات استغاثةٍ تلطمُ جدران ذاك البئرِ، ثُمّ تضيعُ في غير المنتهي.

بقيّ يحيى المجنون أحجية تتهامسُ بها الألسنُ في الخفاء، أحجية لا يعلمُ حلّها إلا القليلَ من أقرانه، وطالما مضغَ أهلُ الحي سيرته، وتفنن البعضُ في نسجِ سببِ جنونه. الذين يعلمون حقيقته، أمسه وحاضره، كانوا يكتفون بهز رؤوسهم دونَ أن يقفوا عند ما يسمعون، فإن كان ما يسمعونه صحيحًا أو خاطئًا، فالأمرُ عندهم سواء. لا يردون عليه، ولا يبذلون أيّ جهدٍ في تصويبه.

لم يهدأ المجنون، فبعدَ أن أجلسه أبو سالم وحاولَ تهدئته عاود الكـرّةَ، ونهـضَّ ليعانقـه مـن جديـدٍ حتـى أنَّ بعـض الضـيقِ اعـترى خاطره، وهذا ما شعرَ به مهند حين قال أبو سالم يحـدِّثُ المجنـون دون رجـاءٍ بالإجابـة: مـا الـذي أخرجـكَ مـن دارِكَ في هـذا الـبرد. فأجابَ مهند وهو يمسـكُ بمرفـق يحيـى وينهضـه: سـأتولى إعادتـه إلى أمه، ثُمَّ سأل الحلبي: إن أردت مرافقتي، فهو في طريقنا.

اعترض المجنون وتسمَّرَ في مكانه لا يريدُ أن يبارحه، وثلاثتَهم يحاولون إقناعه ودفعه للذهاب إلى أن أفلح الحلبي وهـو أجهلهُـم به أن يكسب ودَّه حين مدَّ يده إلى جيبه، وأخرجَ قطعةً نقديةً من فئة العشر ليرات فضيةَ اللون، ووضعها في يد المجنون، فانسـاقَ أمامـه وهو يحضنه ويشدُّ عليه العناق.

(4)

يشقُّ عليه التنفس، وكأن ثقلاً حطَّ على صدره، عاده الطبيب، فعلم أن التهابًا حاداً في القصبات الهوائية أصابه، وسيلزمه الفراش أسبوعًا على أقلِّ تقدير. لم يكن يعلم أن الرائحة التي عشعشت في صدره كما عشعشت في زوايا المنزل والبردُ الذي أصابه سيوصلانه إلى هذه الحالة، وحتى لو علم، لما كان بوسعه تجنبهما. يصعب على مَن هم مثله أن ينقطعوا عن العمل حتى في أشد أوقاتهم ضعفًا، ففي البيت أفواه عليها أن تأكُل، ولا طعامَ دون عمل، ولا عمل لمن لا يستطيع الوقوف على قدميه من شدة ضعفه. وفوقَ ذلكَ أن جسده اعتاد الحركة والسعي، فكان يشعرُ حتى في ضعفه أنه سجينٌ في بيته، وتزيدُ من ضيقه رؤيةَ زوجته وابنته وهما تكتفيان بالقليل. وبثينة لا تشكو بفمها، لكن الأسى بوجهها ينطقُ بأبلغِ الكلام، وأم سالمٍ اعتادت الصبر... ما الصبر... ؟! حينَ تقبلُ عيشكَ بعد أن تفقد القوةَ على تغييره، فهل يسمى ذلك صبراً. حين تفقدُ عزيزاً وليس في وسعكَ ردُّ القدر وتبديله، فهل يُسمى ذلك صبراً؟ إنه هدوءُ العاجز.

جفَّت ساحةُ المنزل، وبقيت الرائحةُ تتسربُ إلى غرفه وتستوطنها حتى ألفها أهلُ البيت. وفي اليوم الثالث من مرض أبو سالم، شعر بتحسنٍ واضح، إلّا أن السعال كان يشتدُ عليه ليلاً،

وحينما يدخن من سجائره أو يكثر المشي وهذا ما جعله يستبشرُ بأنَّ المرضَ قد بدأ بالانحسار من جسده شيئًا فشيء.

وفي ظهيرة اليوم التالي لشعوره بالتحسّن جلس عند باب المنزل، وبعد أن استقرَّ جالسًا في المسطبةِ الصغيرةِ التي تخيّمُ عليها شجرةَ سروٍ فتيّة، وبينما هو واضعٌ يديه على ركبتيه يعبُّ من الهواء أكثرَ من حاجته، وينظرُ في امتدادِ عينيه إلى الحارة يتأمّل بيوتها الممتدة إلى الشارع الرئيس وبضع زهور شتوية عُلقت على نوافذها، وضيقها الذي إن مرّت به سيارةٌ استعصى على المشاة السيرَ فيها، ودكان مهند التي تقع في منتصفها مثل عمودِ ارتكازٍ لهذا البناء الواهن. أقول بينما هو كذلك رأى أحمد شقيق مهند يعدو مسرعًا باتجاه منزله، لم يلقِ التحية، ودخل بيته تاركًا الباب مفتوحًا من خلفه، كان الأمرُ لافتًا، وما هي إلا دقائق حتى بدأ صراخه وصراخ أخيه مهند يعلو من داخل المنزل، ثُمَّ ظهرَ أحمد عند الباب، فصفعه، وغاب خلفه وأبو سالم يراقبُ من مكانه ما يجري، فيرفعُ نظره، ثُمَّ يعيده إلى ما بين قدميه، وبعد دقائق كانت الأصواتُ من منزل أحمد قد ملأت الحي، وهبَّ صوتُ امرأةٍ تستغيث وأولادٌ يبكون كأن مصيبة قد حلَّت بهم، والحارةُ مقفرةٌ قد لزم أهلها بيوتهم من شدة البرد. جرّ أبو سالم خطاه إلى الباب، أخذ يقرعه بشدةٍ وعجل، لكن ما من مجيب وقد عَلت الأصوات، فزاد هو بالطرق، وخرجت أم سالمٍ من البيتِ تنظرُ نحوه والجيران ممن

سمعوا الصوت اعتلوا النوافذَ يسترقون الأخبار بالنظر. وأخيراً فتحت البابَ امرأةٌ محمرةُ الوجه تختلجُ شفتيها وتشهقُ وهي تستنجد: الحقْ بهما... تداركهما.

هرعت أم سالمٍ إلى المرأة لترى حالها بعد أن ركض أبو سالم إلى الداخل يسترشدُ بالصوت، فوجد حين بلغ مصدر الصوت أن الأخوين قد اعتلى أحدهما الآخر وهما يتناوبان على ضرب بعضهما البعض دون رحمة. خصامُ الأقرباء قاسٍ، يعرفُ كُل طرفٍ فيه حقيقة الآخر، يعرفُ ما يؤذيه وما يكسرُه. فيخاصِمُ وفقَ ما يعرف. فما كان منه وهو اللاهثُ دون جهدٍ إلّا أن حال بينهما وأخذهما إلى منزله بعد لأيٍ في حين بقيت أم سالمٍ جانب المرأة، وقد لحقت بها بثينة.

***

جلسَ الشابان وأوغلا بالصمت بعدَ أن مدَّ أبو سالم على كُلِّ واحد منهما كأس ماء، كان أبو سالم أشدّهم تعباً مما جرى، فجسده أُنهِكَ، وعزمه تسرّبَ منه، فصمتَ مهند وآثر أن يضبط نفسه حينَ رأى هذا الحال. لم يكُن صاحب حقٍّ، فكانَ يقاومُ مقاومة المكابر الذي يأبى على نفسه الانكسار. قال وقد ضاقت عليه الغرفة: افتح لي طريقاً يا أبا سالم، أريد الخروج.

أشار أبو سالم له أن يعاود الجلوس مضيفاً: سنخرجُ سوياً، عُد إلى مكانك. ثم صمت لحين، واستأنف: أيعقلُ أن تُسمِعا أهلَ الحيِّ صوتكما، أيُّ فضيحةٍ هذه...؟!

- لا تلُم، ولا تؤنب يا أبا سالم... قلتُ لك: افتح لي الطريق، أريد الخروج.

كان أحمد شقيقُ مهند يجلس على طرف الكنبة كأنه متأهب لاستئناف الشجار، فصرخ وهو يلوح بيده قائلاً: هيه... أنت، إلى أين تظنُ نفسكَ ذاهباً، لن تدخُل الدار ما دمت أنا فيها.

قال مهند وهو يضحكُ باحتقارٍ لما يسمع ناظراً نحو أبي سالمٍ: اسمع ماذا يقول هذا الخرف، يحسبها داره وكأني ضيفٌ عنده أو متسولٌ يأويني تحت جناح عطفه. ثُم نظر نحو أخيه وتابع: الدار دارُ أبينا يا ابن أمي.

- دار أبيك... دارُ عمّك لا أفهمُ ولا أعي. لن أعيش وأسرتي مع قذرٍ نجسٍ مثلك.

تدخلَ أبو سالم وهو ينهرهما: ويحكما!! ما الذي جرى؟ أهكذا يختصمُ الإخوة؟ قُم يا مُهند، فاخرج. لي حديثٌ مع أخيك. ليس في طريقك أحد.

خرج مهند وهو يتمتمُ ويلوح بيده ممتعضاً من أخيه الذي تابع يقول: لتحزم متاعكَ وتمضي... لا أريد أن أراك عند عودتي.

صمت الحاضران لدقيقة، كان أحمد يحكُّ كف يده بفخذه الممتلئة وعيناه الضيقتان تنظران في اللاشيء.

اخترق أبو سالم الصمت وهو يسأله: ما الذي جرى بينكما؟ قل.

تنهدَ أحمد وأجاب وهو يريح جلسته على مقعده: يا أبا سالم، إني سأخبرك... سأخبرك أنت بكُل شيء؛ لأني أعلمُ أنك ذو سلطة على ذلك البغل. فمع كُلِّ خسته ووقاحته إلا أنه يطيعك ويُقدِّرك أكثر مما يفعل معنا نحن إخوته. وإن الأمر ـ والله ـ به عارٌ علينا وواجبٌ أن أكتمه، لكن لا لن أكتمه عنك أنت.

عاد مهند إلى منزله، فكان أول ما لقي لحظة دخوله أم سالم وزوجة أخيه تحمل رضيعتها بين يديها ويتفرسان به. وبثينةُ خلف كتف أمها تخترقه نظراتها وتحبس دموع عينيها بعجزٍ خلف أهدابها. أطرق رأسه أرضاً وقَفِلَ يخرجُ من الدار ملء جنبيه الحرج.

لم تكن زوجة أحمد يعوزها الوقت الطويل لتقصَّ على جارتها أصل الخلاف. ولم تتحرج وهي تخبرها على مسمعٍ من بثينة أن مهند قد جلبَ فتاةً من سقطِ المتاعِ كما وصفتها ليختلي بها في المنزل بعد أن علمَ أنه فارغٌ من أهله، لكن ظنه خاب، إذ عُدتُ أنا وزوجي إلى المنزل ورأيناها. في البدء سمعنا صوت همهمةٍ وضحكات هامسة لحظة فتحنا الباب. ولو أنك رأيتِ حال زوجي

كيف أصبح. نعم كان نادمًا؛ لأنه عاد ويعتصرُ قلبه ألمـًا وحرجـًا من النظر في وجهي أو وجوه أطفاله، ولكن لم يكُن من سبيلٍ أمامه إلا بأن أرسلني في البدء مع الأطفال إلى بيتي في الأعلى، وقد عدتُ وراقبته وهو يقتحمُ غرفة مهند ويطرد الفتاة إلى الخارج، ثُمَّ بصقَ على أخيه وخرج.

حمـدتُ الله علـى خروجـه، وأن الأمـر لـم يتجـاوز ذاك الحـدَّ بينهما، لكن لم يلبث أن مضى بعض الوقتِ حتى عـادَ وغضـبه قـد تفاقم. وكأنه قد اختلى بنفسه، فتفاقم أثر الأمـر في نفسـه. إن أحـدنا حين يغضبُ ويخلو إلـى نفسـه ليهـدأ، لا يزيـد علـى أنـه يفـاقمُ مـن تعقيد الأمور في عقله، ويبحث عمّا يزيد من نار غضبه استعاراً.

كانت بثينةُ واجمةَ الوجه وهي تسمع مجريات الحـدث. تمنّـت لو أنها لـم تسمع ما سمعت، ولا نظرَت لما كـان، إن أقصـى أمانيهـا في هـذه اللحظـات تشـبه أن تكـون شخصـًا مـن شـخوص روايـة سريالية تستطيعُ فتح نافذة الكتاب والخروج من متن القصـة. آهٍ مـا كان أشـدَّ ألمهـا!! سـارعها ألـمٌ في المعـدة زادَ مـن ضيقـها وشـعورٌ عابرٌ بالغثيان أبقاها أسيرةَ الضيق.

وفي دوره قصَّ أحمد ما جرى على أبي سالم، وراح يُكيل اللعن والشـتائم علـى مهنـد وطبعـه الـذي لا يعتـدل ولا يسـتقيم. ويشـبهه بغصن من دالية العنبِ في كُل شبرٍ منه اعوجـاجٌ. وأبـو سـالمٍ يُهـدِّئ

من حمئته، ويبحثُ في معاجم عقله عن كلماتٍ يمكن لها أن توافق الموقف. قالَ بصوتٍ بطيء متقطع: خذه في حلمك، إنه أخوك.

أجاب أحمد: إنه قذرٌ نجس... ألا يخجل من نفسه بأن يحضرَ عاهرةً من عاهراته إلى بيتٍ فيه زوجة أخيه وأولاده؟

قال أبو سالم: لا تُطل وتحمل الأمرَ معاني لا يحتملها، فغداً تهدأ ثائرتك وتعلمُ تفاهةَ الحدث، وأنه بالإمكان تجاوز الأمر بحكمةٍ ودون ارتكابِ حماقة. هناكَ مجالٌ للحكمةِ دائماً حين تحرر نفسك من الغضب. ثُمَّ ما هذا الذي تقوله؟ أتريدُ طرده من المنزل؟! ولنفرض أنك نفذتَ ما تقول، فهل سيغير هذا من كونه أخاً لك، هل ستقطع يدك بيدك، لن تقدر.

(5)

هل تمنحنا الحياة بعضَ المصادفات لتسرقَ منا الطمأنينةَ؟ هذا السؤال طرحه تميم الحلبي على نفسه، فلم يلقَ إجابةً، ذلك أنه بعد أن مضت أيامٌ على عمله مع عبد القاهر وبينما هما يتجاذبان أطرافَ الحديثِ بهدوءٍ وعبدُ القاهِر صاحب الورشة يستعرضُ ذاكرته المتينة في حفظ عائلات دمشقَ وأنسابها مزهواً بنفسه وعلمه، تعرضَ بالسؤال عن عائلة الحلبي وأنسبائه، وبعدَ أن استفهمَ وعَلِمَ قالَ مُحتجاً: ولِمَ لَمْ يخبرني أبو سالم أن بينكم نسباً ومصاهرة؟!

أجاب الحلبي وكلاهما لم يَفهمِ الآخر: بيننا نسب!

تابعَ عبد القاهر: أتهزأُ مني...! على مهلك، فإني رجلٌ كبير السنِّ، ولا أحتملَ مزاحَ الشباب. إن أبا سالم شقيق زياد والد زوجتك، وإني أعرفُ زياد كما أعرفُ أبا سالم، ولكن لِمَ لَمْ يخبرني أبو سالم بقرابتكَ منه.

ردَّ الحلبي بحَيرةٍ: يبدو أنك أنت الذي يسخرُ منّي... أصدقاً تقول؟ فقد اختلطَ عندي مزحكَ بجِدك، فما عدتُ أميز بينهما.

انحنى عبد القاهر بجسده على مكتبه الذي يفصلُ بينه وبينَ الحلبي، وراح يصفُ له والد زوجته، ويعدُّ له أفراد العائلة مُفصلاً الأمر تفصيلاً يصعبُ على فردٍ من العائلة نفسها بأن يُحيطَ به، فقد

ذكر أحداثًا لم يكُن الحلبي وهو نسيبٌ لهم ليعلم بها، ثُمَّ أنهى كلامه قائلاً بانتصارِ الحذق: إني لأعرفهم كما يعرفُ الرجُلُ أهله.

كان عبد القاهر قد أسهب في الحديثِ، واسترسل بالكلام محاولاً قدر استطاعته أن يخفي انزعاجه وهو يتأرجح بين شعورين اثنين انزعاجه بأن أبا سالمٍ لم يخبره بصلة القربى تلك، وأنه يبغضُ شقيق أبي سالم، فكيف له الآن أن يعملَ مع الحلبي وهو زوج ابنة عدوه. لكن اكتشافه الأمر وتحدّثه بصفة العليم خفف عنه هذا الانزعاجَ قليلاً، فكان يتحدثُ عابسًا، ثُمَّ تتسللت ابتسامة نصرٍ إلى شفتيه دون وعيٍ منه.

قال الحلبي: إنك تعرفُ حال أبي سالم، أين هو من حال أخيه؟!... قد يكونون من ذوي القربى، لكنهم ليسوا إخوة.

- تقصدُ فقره... ؟!

- بالطبع... أيعقل أن يُشهدَ لأخيه بوفرة المال وبحبوحة العيش، ويكون هو بائعُ فولٍ يسعى على عربة؟!

- ولكن ها أنت ذا... زوج ابنته... وحالك ليس أفضل من حال أبي سالم.

- إن المسألة بالنسبة لي مختلفة... ذاك أخوه. أمّا أنا، فلا تقبلُ نفسي بأن يستعلي عليها أحدٌ بماله.

- لا يوجد اختلاف، من لا يُعين أخاه، فلن يُعين صهره. ثُمَّ منذ متى وأنت تعرفُ أبا سالم، ما الذي جمعكما؟

– منذُ أيامٍ ليس أكثر من ذلك.

– لو رأيت حاله حينَ أتاني وراحَ يصِف الحيل لتوظيفك عندي لعرفتَ الفرقَ بينه وبين أخيه.

قاطعه الحلبي: وحماي أيضاً كثيراً ما حاول مساعدتي، لكني أخبرتك أن المسألةَ بالنسبةِ لي مختلفة.

كان عبد القاهر قد بدأ حديث نفسه له يسرقه من التركيز فيما يسمع، فلا تصل إلى عقله سوى كلماتٍ قليلةٍ يحاول أن يفهمَ المقصودَ منها ليدفع عن نفسه الحرج. لكن نفسه قد ألحت عليه: لماذا لم يخبره أبو سالم بصلةِ القرابةِ بينه وبين الحلبي، هل يعرف أم وحدها المصادفة التي جمعتهم؟ أخيراً أعانه ذكاؤه، فتذكرَ مدة القطيعةَ بين أبي سالم وزياد، فرجّحَ ألا يكون أبو سالمٍ على معرفةٍ بهذه القرابة، وقد بانَ على وجهه أنه فهمَ شيئًا وسريعًا قالَ: لقد فهمتُ الآنَ كُلَّ شيء، أيها المسكين، كيفَ لك أن تعرفَ هذه القرابة وحموكَ وأبو سالمٍ في قطيعةٍ منذ سنواتٍ طويلة؟ كيفَ غابَ ذاكَ عن عقلي؟!

وحينَ استفسر الحلبي عن سبب هذه القطيعةِ بينَ الأخوين أجابه عبد القاهرِ من فوره، وأبان له كيف استطاعَ زياد أن يسلبَ أبا سالمَ حقه في الميراث؟ وكيفَ تسبب في شقاء أبي سالم بقيةَ حياته، فارتبك الحلبي كأنه هو السارق والمعتدي، وأحسَّ أن مروءته قد اهتزت، فنسي النطق وضاع منه الكلام، وأخيراً نهضَ وأطرق.

أمضى عبد القاهر بقية يومه وهو يحاولُ مواساة تميم وإضحاكه، ولكن عبثاً يحاول، فإن تميم حينها كان يركضُ في التيه ولا ونيسَ يؤنسه. ينظرُ في ساعته، فيرى عقاربها تسيرُ ببطءٍ لم يألفه مثقلةً على وجدانه. يريدُ من الوقت أن يمضي لتضمه جدرانُ المنزل من جديد، فيداري خجلهُ هناكَ دون خجلٍ من الخجلِ نفسه. لكنَ الوقت الآن أطول، فالدقيقةُ ليست كما عهدها. باختصارٍ، كان عطشاً للهروب ونهارُ العطشى طويل، لكن كُل بعيدٍ لا بدَّ أن يدنو وقد دنا المساء ووصل إلى بيته ومازالَ مجبراً على الصمت. قعد إلى سفرةِ العشاء، وراحَ يأكُل بعجلٍ غارقاً بتفكيره بما سمعَ، فلم يلتفت إلى ابنته، واختصرَ كلامه مع زوجته على بعض الجمل الوجيزة. وبعدَ أن أحسَّ بالشبع قال: هل لكِ عمٌّ يُكنّى بـ "أبي سالم"...؟!

رفعت رشا حاجبيها وهي تجيب: نَعم... عمي فؤاد... أبو سالم. ثمَّ ضحكت وتابعت: مَن الذي أخبركَ عنه؟ رأيته عند أبي؟

- لا.

أثارت نظرات الحلبي وصوته الجاد الريبةَ لديها وبفراسةِ المرأة علمت أن خلف السؤال ما خلفه، فقالت بجد: ما الذي أتى بذكره على لسانك؟ كيف عرفته؟

- أفهمُ الآن إذاً أن لزوجتي عمّاً لم أكن لأعرفه لولا المصادفة، والسبب أنَّ أباها السارقَ قد تصرّفَ معه بخسّةٍ في يومٍ ما، فباتت العائلةُ كُلّها تخجلُ من ذكرِ ضحيتهم.

إن الحلبي في تلك اللحظات قد تحول من إنسانٍ هادئٍ إلى آخر يقفزُ في أرجاء الغرفةِ مثل حيوانٍ ليس له عقل يضبطه. كان غاضباً وناقماً وقد تحرر غضبه الحبيس على رشا التي لمَّا تكن واعيةً بعد بما يجري. لقد ضيق عليها المُتَّسِع، لكنها وجدت سبيلاً للكلام لحظة نَعَت أبيها بالسارق، فأمسكت بالكلمة كأنها سلاحها الوحيد لنزاله.

أجابت: أتدري أنك لست غاضباً لعدم معرفتك به، إنك فقط تبحثُ عن زلةٍ لوالدي لتنتقصَ منه وتتعالى عليه، فإن صاحب النفسِ الخاوية ينتظرُ زلات الآخرين ليتعالى عليهم.

تخطى الحلبي قولها كأنه لم يسمعه وعاد لسؤاله الأول: لماذا لم تخبريني عنه.

- وكيف أخبرك... ولماذا.. ؟! ما العرف الذي يوجبُ عليَّ أن أعلمك بأن لي عماً أنا بالكادِ أذكره. وهب أني أخبرتك يوماً أن لي عمّاً لا تعرفه، فهل ستقيم لما تسمعه مقاماً في نفسك. إنك لا تهتم بزوجتك، فهل ستهتمُّ بأفراد أسرتها.

جلست رشا بعد وقوفٍ مرتجف وتابعت: إياك... إياك أن تصف أبي بالسارق مرة أخرى، فيكون ما لا تحب أن يكن.

بدأ الهدوء يعود إلى نفس الحلبي بعد هبّته تلك، فحدة كلامه خفَّت، وانفعالاته أصبحت مترددة تظهرُ وتغيب، ولأنه يعي جنون زوجته، فقد راعه تهديدها له، فآثر السلامةَ وأدارَ دفة الحديث إلى مكانٍ أكثر عقلانيةٍ مما كان فيه. قال: حسنًا، هاتي، فأخبريني عن عمك.

ما الذي سأخبرك به، إنَّ كُلَّ ما أذكره عنه أن خلافاً وقع بينه وبين والدي، خلاف نشب عند تقاسُم الميراث، وهذا ما وعيته بعد زمنٍ من مُضيه. وانقطع ذكره عن العائلة، فلا يأتي على ذكره أحد. نعم لقد نُسي، وقد كانَ حاضراً، وأصبح مِن تفاصيل الماضي التي يتعمد الجميع نسيانها. إن له ابنة وحيدة... ليس له ولد، لكنه كُنِّيَّ بأبي سالمٍ منذُ صغره. كانت ابنته صديقتي في المدرسة وحدثَ أن زرتها في أحد الأيامِ في بيتها، فاستقبلني عمي كما يستقبلُ الأب ابنته، وتوالت الزيارات السريّة بطبيعتها، فقد كنتُ قلقةً حينها، وأعرف أن ما أفعله ليس صواباً، ولن يرضي عائلتي إن هم علموا به. لقد كانَ حسن الطبعِ معي، ودمث الخلق إلى درجةٍ يضيق بها المرء، وإلى اليوم لم أخبر أحداً بتلكَ الزيارات حتى أن صلتي بابنته انقطعت بعد أن اختلفت طرقنا في الحياة.

تنهدت رشا كأنها شعرت بالخزي مما ستقوله وتابعت: أتصدق أنه لم يمر بذاكرتي لسنوات، ثُم ها أنت تأتي اليوم وتحتجُّ لعدم ذكره لك.

صمتت رشا بعض الوقتِ وقد غالبها البكاءُ، ثُمَّ استأنفت تقول: حينَ سألتني عنه حسبت أنك زرتَ والدي، وبطريقةٍ ما تعرفت إلى عمي عنده، لا أعلمُ لما خطرَ لي لوهلةٍ أنهما تصالحا، أو أنّهما ليسَ بينهما شيءٌ يبعدهما واحداً عن الآخر. إن تفاصيلَ الخلاف في العائلة تبقى مكتومةً عن الصغار، فلا يتحدثُ بها أحدٌ أمامهم حتى لا يكبروا عليها.

كانت رشا صادقةً بعدم اطلاعها على التفاصيل، إنها تتحدثُ بحماس طفلٍ صادقٍ لم يُجرب خبثَ الحياة، لكنها وفي قرارة نفسها كان ينمو شعور قديم بأن أباها احتال على عمها. كانت تخفي شعورها وتقتله بالتجاهل، فلا تسمحُ له بأن يتحول إلى فكرةٍ يتدارسها العقل كأي فكرةٍ واعية.

***

إنَّ علاقة طيبة ربطت بين مهند وتميم الحلبي ذلك أن أبا سالم في اليوم الأول من مرضه طلبَ من مهند أن يزور الحلبي في المدرسة ليخبره بتفاصيل العمل الجديد ومكانه وموعد بدء العمل حسبما اتفق أبو سالم مع عبد القاهر، فقد نسي أبو سالمٍ أن يخبره عن هذه التفاصيل يوم زاره الحلبي، ولا يعرف لِماذا سكت الحلبي عن السؤالِ أيضاً. فكان انطباع الحلبي عن مهندٍ مختلفاً عن المرةِ الأولى التي شاهده بها. كان ممتناً له، شاكراً لمعروفه الذي لم يكن ملزماً به. لقد رأى الحلبي أن قدومَ مهند إليه يعدُّ

ضرباً من ضروب الشهامة والانتخاء، فألح على مهند أن يزوره في المنزلِ ليلتها، فزاره ولم يردَّ إلحاحه بالرفض. حتى أنهما سهرا لوقتٍ متأخرٍ في ضحكٍ ولهو ومهند يقص النكات على مُضيفه، فيغمرُ البيتَ بالضحكِ، حتى أن رشا كانت تستمعُ لحديثهما من حجرتها وتضحكُ بصمتٍ، فيهتزُّ السريرُ مع اهتزاز جسدها إثرَ الضحكِ المكبوت. النساء يخنقنَ الضحكات لحظة ولادتها، أمَّا البكاء، فله عذرٌ أزليٌّ للظهور.

اعتاد البيتُ على زيارةِ مهندٍ التي أخذت تتكرر بانتظامٍ وبساعةٍ معلومة، لكن مهند تخلفَ عن المجيء في يوم صراعه مع أخيه، وكان الحلبي في هذا الخلافِ مع زوجته قد نسي أمرَ مهند. إلا أنه حين وضعَ رأسه على الوسادة ليستقبل النوم تذكره وحمدَ ربه أن مهندٍ لم يأتِ هذه الليلة، فقد كانت ليلةً مشحونةً بكُل الانفعالات المجهدة. إنه الآن منهك ويريدُ أن يقفَ عقله عن التفكير فقط ولا طاقةَ له على السهرِ والمسامرة. وحدّثَ نفسه بأنه سيزور مهند بالغد.

أما بالنسبة إلى مهند، فلم تكن زيارة صاحبه الجديد من الأمور اللاتي متاحٌ له أن ينشغل بها في هذا الحين، فقد مرّ يومه وهو في الدكان وحيداً، ولم يأتِه أخوه، كان متوقعاً أن يمرَّ الأمرُ بسلامٍ بعدما حدث وتصفو المياه من الكدرِ شيئاً فشيء كما اعتاد أن يحدُثَ بعدَ كُلِّ خلاف بينهما. ولأن أخاه لم يأتِ طوال اليوم، فقد

توجسَ بأنه سيطرد من المنزل إن عادَ إليه، فخاف من أن يضطرَ إلى الشداد مع أخيه كما حصلَ في الصَّباح. لكنه مشى إلى مخاوفه مستهزئًا بها، وعاد مساءً إلى المنزلِ، فلمحَ أخاه عند النافذةِ ينظرُ إليه من الأعلى، فرمقه بنظرةٍ غير مبالية في ظاهرها، وفتح باب حجرته وغاب بداخلها، ورمى كل منغصات يومه في غربال النوم ليهربَ من واقعه، فحينَ يشقُّ على العقل الإتيان بالحلول يختار الانسحاب ويهربُ نحو النوم، وغالبًا ما يفشل بأن ينالَ السكينة، فصراعات النهار تجدُ طريقها دائمًا إلى أحلام الليل.

***

وها هو يومٌ آخر قد مرَّ عليه وهو ينتظر أن يأتي أخوه إلى العمل، ففي قدومه إشارة إلى أنَّ الخلاف سيُحَل، لكن انتظاره كان عبثيًا، وليست له الجرأة ليذهبَ هو، فيحدثه، فكان هذا الأمر يزيد من كمده، ولو أن هناك ردَّ فعلٍ من أخيه، لكان الأمرُ أهون عليه، لكن الصمت المطبق وعدمَ علمه بما سيبدرُ في مقتبل الأيام هو علّةُ كمده، فالصمت قولٌ صريحٌ بأن الأمور في طريقها للتعقد. وزادَ عليه أن سمعَ تفاصيلَ قصته على بعضِ الألسُنِ في حارته حتى أنه قد لاحظ أنّ من زبائنه من ذهبَ ليبتاعَ حوائجه من بائعي الحارةِ المجاورة.

لقد ذاعت قصته في الحي بطرفةِ عين، وطفقَ النَّاس يزيدون عليها، وينقصون منها حسبما يقتضيه الخيال، وانقسمَ النَّاس إلى

فِرقٍ في تعاطيهم لها، فمنهم مَن كان على شاكلة مهنّد من أصدقائه، فجعلوا يهزأون منه؛ لأنه لم يستطع أن يقضي حاجته بالخفاءِ، وقد جرَّ الفضيحةَ إلى نفسه، ومنهُم من شعرَ بالضغينةِ اتجاهه، فأمرَ عائلته ألا يقربوا دكانه، حتى أن بعضَ المراهقاتِ جعلن يمررن من أمامِ دكانه وهنَّ يتمايلنَ ويعلينَ صوتهنَّ مستهزءاتٍ به.

فكان يومه هذا حافلاً بالتقلّباتِ النفسيّة، فتارةً يضحكُ غيرَ مبالٍ، وتارة أخرى يشردُ والقلقُ يفتت عقله وبأوقاتٍ أخرى يحرقُ الخجلُ أهدابَ وجهه. وفي ساعة الغروب دخل إليه الحلبي، زائرٌ لم يتوقعه، فحياه مسرعًا وهو يقول: سنلتقي لاحقًا، زوجتي معي في الخارج، لكني لم أشأ أن أمرَّ جانب دكانكَ دون أن أراك، وخرج قاصداً بيتَ أبي سالمٍ.

***

إنّ أبا سالم وقع في دوامة الحيرة حتى نزل الغبش على عينيه، فأخذ مذهولاً يبحثُ عن تفسير يزيل هذا الغباش، فكان كمن يتحسس جداراً في الظلام، فلا يجد مفتاح النور، فحينَ فتح باب المنزلِ لضيفه تميم الحلبي أطرقَ برأسه أرضًا لحظة رؤيةِ زوجة الحلبي، وأشارَ لها نحو غرفة النساء. وهي لم تُعرِّف بنفسها، وغابت في الغرفة إلى حين خرجت له مِن جديدٍ بعد دقائق. كان قد استقرَ في جلسته في ساحةِ المنزلِ وأخذ يرحبُ بالحلبي حتى خرجت نحوه رشا، فاستهجنَ قدومها، وبقي مطرقًا بعينيه أرضًا،

فقرفصت جانبه تتلقف يده لتقبّلها وهو لمَّا يَكُن قد عرفها بعد، فكانت جميع العيون في المنزل تترصدُ ردة فعله وحيرته وعدمَ فهمه، حتى ابنة الحلبي التي كانت تضمها بثينةَ بيديها كانت تنظرُ نحو أبي سالم وهو يحاول أن يسحب يده من رشا. فقال الحلبي في موضعٍ وجب به الكلام حسبما رأى: إنها رشا... ابنة أخيك... انظر إليها.

كانت بثينة تبكي وهي تضُم ابنة رشا وتشدها إلى صدرها، فلمحَ أبو سالمٍ دموع ابنته، فرقَّ قلبه، وانحنى يُقبِّل رأس رشا التي كانت هي الأخرى تبكي وتقول كلاماً لم يفهمه أحد، إلا أنه في ظاهره طلبٌ للصفح وندمٌ على شيءٍ لا تعلم ما هو على وجه الدقة.

أجلسها أبو سالمٍ جانبه، وأومأ لأم سالمٍ أن تأتيه أما بثينة، فإنَّ خجلها من الجلوس في وجود الحلبي دفعها أن تذهب لإعداد الشاي.

كان أبو سالم يضحك وكأن الفرح تفجرَ بصدره دفعةً واحدةً. أشعلَ لفافةَ تبغٍ وراحَ يومئ برأسه لمن حوله ممتنعاً عن الكلام، فاتخذت أم سالمٍ دوره ترحبُ بالحلبي، وتمسح على ركبتي رشا، وتداعب خدود طفلتها، وإذ أقبلت بثينة وبين راحتيها كؤوس الشاي مصفوفةً على طبقٍ نحاسي مزين بالنقوش المنمنمة أشارت

أم سالم على الجميعِ أن ينتقلوا إلى الغرفة؛ كي يكملوا سهرتهم جانب المدفأة.

قال أبو سالمٍ بعد أن أشرف على إشعال نار المدفأة بنفسه: أعجبتك المصادفةُ، إذاً أنت نسيبي ولا أعرف.

أجابَ الحلبي: أنعِم بها من مصادفةٍ كريمة، فإنّكم الفرع الطيب من العائلةِ الذي فاتني أن أعرفه، وأشار بطرف عينه إلى رشا، فنهضت وجلست جانب عمها، وسارعت تقول وهي تمسك يده: إنكَ لستَ مستاءً مني، أليس كذلك؟

– لو تعلمينَ سعادتي برؤيتك، لما سألتني هذا السؤال.

– أحقاً تقول؟

– إنه عين الحق بالطبع، فإني أعلمُ أن الأمرَ ليس بيدك. أخذت رشا يدَ عمها، فقبلتها، ثمَّ تابعت بصوتٍ كصوتِ طفلة وهي تهزُّ رأسها: سنزوركَ دائماً... لكن عليكَ في البدايةِ أن تزورنا أنت. وتجلب بثينة معك. وقبل أن تنهي رشا كلامها قاطعها طرقٌ عنيف على الباب، فمسح أبو سالم بكفه على وجه رشا ونهض يتخطى الحاضرين بهدوءٍ متزنٍ ورشاقةِ قِطٍّ ليجيب الطارق، فكان صوت رجلٍ ينادي باسمه من الخارج. فتح الباب، فوجد مهنداً وكل خليةٍ في جسده ثائرة يكسوها الغضب والعمى. قال له فور أن شاهده: إني أريدك

الآن تعالَ معي. وهل مازال الحلبي عندك؟ رأيته قادماً إليك.

- نعم إنه عندي... ما الأمر؟

- الآن تعلم، عجّل، فأخبر الحلبي أيضاً، ناده كي يأتي رفقتنا.

لم يجد أبو سالم أن السؤال سيفيده، فأخذ الحلبي وخرجا مع مهند.

***

بَقيت النسوة وحدهن في المنزل، لم يَكُن لديهنَّ شؤون خاصة ليتحادثن بها، ولكن لدى النساء دائماً كلام لم يُقل، إنهن جاهزاتٍ لنسج أحاديث طويلةٍ دونَ أدواتٍ للحديثِ، ذاكَ إن لم يكن جانبهن رجُلٌ ينغصُ عليهن تلك المتعةَ ويستخفَّ بها. لم يكن بمقدور رشا أن تتصابى مع صديقتها، فهي الآن زوجةٌ وأُم، وعليها أن تحذو حذوَ الأمهات في الرصانة والجِد. وذاك أمرٌ أخلفَ فجوةً عاطفية بينهما دون إعلانٍ. قالت أم سالم متجاوزة حدود الصمت: إن شباب هذه الأيام يتصرفون دون أن يقيموا شأناً لأهلهم وعائلاتهم، فالطيش أسبلَ ستاره على أعينهم. إنهم كالبهائم الضالة.

هزَّت رشا رأسها مؤيدةً ومبديةً استفهامها، بينما تابعت أم سالم: هؤلاء جيراننا دائمو المشاكل مع بعضهم البعض، في كُلِّ فترةٍ يجتمع بقية الجيران على أصواتهم، فيتدخلوا ويصالحونهم،

ويهدئوا النفوس الثائرة، لكن لا تمضي بضعةُ أيام حتى يختصموا ويوقظوا الحي على أصواتهم من جديد.

قالت رشا وهي تهزُّ ابنتها في حجرها: أذهبَ زوجي إليهم الآن؟ ما خصه ليضع نفسه في خِضَمِ المشاكلِ هو الآخر؟

- إنه مع عمّك، لا تخشي عليه. ألم أقل لك: لقد تشاجروا البارحةَ، ويبدو أن المشكلةَ بينهم لم تنتهي إلى الآن، إنهم كاملو الرجولة، ومع ذلك لهم عقول المراهقين.

ثُمَّ أخفضت صوتها وهي تقول: إن كُل مشكلاتهم بسبب النسوة: فلهم أخٌ أصغر ديدنه وهاجسه النساء وصحبتهن. وإخوته أشرافٌ ضنوا معه، ولكنه لا يعقل.

أجابت رشا: إنَّ حبَّ النساءِ داءٌ يذل الرجل ويُحِطُ من قدره. ربما هي فترةٌ يمرُّ بها أغلب الشبان والمهم ألا يتمادى في خطئه.

غمزتها أم سالمٍ وقالت لبثينة: قومي، فأعدي لنا القهوةَ، ثُمَّ تابعت بعدَ أن أبعدت ابنتها: تقولين: ألا يتمادى، لكِ أن تتخيلي أنه البارحة كان قد أحضرَ امرأةً إلى البيت. أعوذُ بالله من أمثاله. أتدرين لم يكُن واضحًا عليه أنه من هذا النوع من الشبان، فإنه مؤدبُ الحديث خدوم وطيب. حتى أنه من أكثر النَّاس صحبةً لعمك في الحارةِ هنا. ولكن أنت تعلمين ما تفعله النساء بعقول الرجال.

- وما أدراكِ أنت؟

- فُضحَ أمره، ولقد حدثتني زوجةُ أخيه بقصته واللوم ليس عليه وحده، إنما على تلك التي أتت إليه. إننا في زمن لا نعلم به حداً للوقاحةِ.

ما زالت بثينة تُعدُّ القهوةَ في المطبخ الذي كان ضيقًا مستطيل الشكل له خزائن على طول الحائط من الأعلى تغطيها ستائر قانية اللون. فكانت تُسند ظهرها إلى الحائط ضامةً ذراعيها إلى صدرها واجمةَ الوجه تنظر في شعلة النَّار أمامها. إن صاحبتها التي سرَّت لحظةَ رأتها من جديدٍ قد أصبحت غريبةً عليها، فشعرتَ بأن الوحدة التي فارقتها لدقائق عادت لتعتصرها من جديدٍ، وأمها اللاتي تنظرُ إليها كأنها طفلة وتعاملها على هذا الأساس أمام الضيفة كانت تفاقم من شعورها هذا. فلم يكن من مجيء رشا إليهم إلَّا إحساسًا عابراً بالفرح زال وحلَّ محله أسى تراكمَ فوقَ همّها القديم. والوحدةُ التي عانت منها إثر انتهائها من دراستها والتزامها المنزل جعلتها أشدَّ حساسيةً مِن كُل حدثٍ قد يعترضها، إنها تجترُّ الآلام من حيث كانت تسعد، وتثقلُ على نفسها أرقُّ النسمات هبوبًا. وهكذا كانت تعزي حالها لثبات الأيام وركودِ فعلها، ولكن الحقيقةَ المدفونةَ في طيات وجدانها أنها محبةٌ وتعيشُ الحب لأول مرة، والحبُّ لا يكون أصيلاً إن لم يصحبه كمدُ العيش وضيقُ الوجود، فلا يتسعُ هذا الوجود ويزهو إلا لحظةَ رؤى المحبوب. فلأجلِ ذلكَ كانت تختلقُ الحججَ وتبتدعُ الأعذار لتلمح محبوبها،

فيظلها السرور بظله لحظة تراه، وتحلقُ روحها كفراشة. لم تقف عند ما قيل عن مهند كثيراً، بل إنها تجاوزته كأنه لم يكن، معللةً ذلك بأنها لمَّا تُخبره بعد بما تشعرُ نحوه، فكيف لها أن تلومه...! وأنها لو أخبرته لحقَّ لها أن تحزن وتحجم. إنها تراه بعين قلبها، فكُلُّ ما فيه حسن.

قطعت شرودها وهي تهمسُ لنفسها: يجب عليَّ أن أتخلصَ من الحرجِ وأخبره، إني لأظلمُ نفسي إن لزمتُ الصمتَ أكثر.

وأكملت إعداد القهوة ومضت.

(6)

في طبيعةِ الحال لم يَكُن أحمد شقيق مهند شخصيةً مستقيمة حتى يعلل المرء غضبه من فعل أخيه بتلك الاستقامة. لكن تكتمه عمَّا في نفسه وحرصه على ألا تهتز قيمته بين النَّاس كان يظهره بصورةِ المُطَهَّرِ من الخطايا. فهو يعلمُ القاعدة ويلزم نفسه بها: إن النَّاس تُعيب على المرء الفعل الذي تراه، ولذلك كان كتوماً أشدَّ الكتمان، ينضحُ فكره بالشذوذ، وله ألفُ وجهٍ في السر، وفي العلن وجهٌ واحد، وجه البراءة الأولى. ولأن ضياعَ أحد البشر قد يكونُ منجاةً للآخرين، فقد وجدَ سوءَ أخيه فرصةً لتحقيق غايته.

كان يسكن في الطابق العلوي للدار، له غرفتان: الأولى منهما غرفة نومٍ له ولزوجته، والثانية غرفة معيشةٍ في النهار، وتتحول إلى غرفة منامةٍ لأطفاله عند المساء، فإن حصل وزارهم ضيف، فلن يجدَ مكاناً لنفسه بينهم. كان منزله هذا قد بدأ يضيقُ عليه وعلى أسرته التي تكبر، فطفقت زوجته تلح عليه يوماً بعد يوم ليقوم ببناء غرفةٍ أخرى ليتسع البيت لها ولأبنائها.

لَمعت الفكرةُ برأسِ أحمد بأن يشتري حصَص إخوته مِنَّ المنزل، فله اثنان من الإخوة، مهندٌ ويعيش معه، وأخٌ آخر كانَ قد استقل عنهما، ويسكنُ قُربهما، قليلَ الزيارات، ومن طبيعته أنه منكرٌ للعلاقات لا يهنأ إلا بوحدته، حتى أنه قد تزوج، فأدرك بعد سنوات أن زوجته عاقر، فلم يكترث للأمر، ووافق الأمر هواه بأن

يحيا عابراً في الحياة دون أثر خلفه. يريد أن يعيشَ بسلامٍ. غايةُ الحياة لديه هي أن ينال السكينة.

وله أختٌ وحيدة كانت قد تزوجت لنجارِ موزاييك يملكُ متجراً وورشةً في دمشق القديمة يدعى "القاسم". تزورهم بين حينٍ وحين. وقد تقاسم الإخوة هذا الإرثَ من أبيهم بشكلٍ مبدئيٍ دون اتزان على أن يعيش مهند وأحمد في البيت لمهند الطابق العلوي ولمهند الطابق السفلي، ويعمل كلاهما في الدكان، ويدفعان كراءها إلى أخيهم سعد وشقيقتهم.

وعلى هذه القسمةِ غير العادلة أمضوا سنواتٍ عدة، كُلٌّ واحدٍ منهم خجلٌ من المطالبةِ بإرثه القليل، أو يمنعه عن ذلكَ مانعٌ. تاركينَ الأمر لما تأتي به الأيام وقد شطَّ هذا السكوت حتى بدأ الحقُّ يُنسى والخجل يتراكمُ في نفوسهم جميعاً. وإذ ليس لأحمد المقدرة على أن يدفع لإخوته حصصهم لينفرد بالمنزلِ وحده، أخذت نفسه تلحُّ عليه لكي يجدَ حلاً للأمر، وقد سيقَ الحلُ إليه دونَ عناء. فكانَ منه في اليوم الذي تلا مشكلته مع مهند أن ذهب إلى أخيه سعد، واشتدَّ وهو يؤكدُ له أن الكيل قد طفح، وأنَّه لم يعد يطيق وجود مهند في المنزل، وكذلكَ فعلَ مع شقيقته وزوجها ليضمنَ أن أيَّ فعلٍ سيقدم عليه مع مهند سيكون مُبرراً أمام ناظر الجميع. وأخذَ يُمهِّدُ لهم الدَّرب الذي سيسلكه للحدِّ من عبءِ مهند، ويحثّهُم على دعمه. وطبيعةُ النَّاس في المجتمعات الفاقدة

للثقة بقدراتها الوجودية أنها تصادقُ على المسموع الغيبي إن كان له مرشدٌ أكثرَ مما تصادقُ على المرئي والملموس في حالِ غيابِ المرشدين، فهي تخشى تبنّي الرأي ودائماً ما تبحثُ عمّن يُمسكُ يدها ويدلها على مواضعِ الخطا. وإخوةُ أحمد كانوا من هذا المجتمعِ، وكانَ هو في هذه الحالةِ مُرشدّهُم الذي يعبأ صدورهُم على شقيقهم مهند.

***

وفي العودةِ إلى الخلفِ قليلاً سنجدُ مهنداً وقد عاد إلى المنزل في هذه الليلةِ، فلاقته شقيقته عندَ الباب بعناقٍ طويل، وراحت تمسحُ على رأسه وتقسمُ عليه بأن يكون هادئاً مع أخويه مهما بدرَ منهما. فما كانَ منه إلا أن صعد إليهم، فوجدَ أخويه وزوجَ شقيقته يردون عليه تحيته بسخطٍ وعيونهم تُبطنُ أكثرَ مما تظهر. فوقفَ بينهم بعدَ برهةٍ من التفكير والصمت. وقال: (دقيقتين وأعودُ إليكم)، ولم يغب طويلاً حتى عادَ ومعه أبو سالمٍ وتميم الحلبي اللذان دخلا وألقيا التحية على الجميع وهما في حيرةٍ من وجودهما هنا.

جلس الضيفان في صدر الغرفة جانبهما الأيسر يجلسُ صهر العائلةِ القاسم مع أحمد وسعد، وإلى الجانبِ الآخر ركن مهند، وسريعاً وزعت كؤوس الشاي على الجالسين، بينما دار نقاش قصير بين أبي سالم والقاسم عن أنواعِ الخشب والجميعُ ينظرُ

إليهما ويتابعُ حديثهُما دون أن يتدخلَ منهم أحد، وحده مهند الذي كانَ يحدج أخويه بنظراتٍ ناقمةٍ، ثُمَّ يُطرقُ بعينيه أرضـًا. قال وقد توجهت جميعُ الأعين إليه بعد أن انتهى المتحاوران: ماذا بكُم؟ قولوا إن كان لديكُم ما يقال، هنا أمامَ هذا الطيب. إني راضٍ به حكمـًا بيننا.

أجاب أحمد: بربِّكَ إن الأمرُ عائلي، فلا تفضح نفسك. كفاها من الفضائحِ ما أتاها.

– لا عليكَ مني، وهات فأخبرني ما عندك وهؤلاء الذين تراهُم ليسوا أغرابـًا، بل هُم أقرب إليَّ منك.

– فلينفعكَ قريباك إذاً.

تدخل القاسم وهو يُصمت أحمد؛ كي لا يتجاوز حده مع الضيوف قال: فعلاً إنهُم خيرُ من يحتكمُ المرءُ إليه. لم تعرفنا بصاحبكَ يا مهند، وكان يشيرُ إلى الحلبي.

أجابَ أبو سالمٍ من فوره: إنه نسيبٌ لي. تميم الحلبي، معلمُ لغةٍ عربية.

هزوا رؤوسهم وحيّوه، وبادلهم الحلبي ذات الأمر.

قال القاسم: أعلمُ يا أبا سالم أنك مُحيطٌ بالحادثةِ وبسبب ما جرى، فإن أحمد يريدُ من مهند أن يُخلي المنزلَ له.

قاطعه مهند:

– أخلي المنزل! ويحكُم!! كيفَ تحكمون؟!!

استأنفَ القاسم كلامه:

دعني أكملْ يا مهند، ثُمَّ تحدث، فإنَّ خطأك كبير ولأحمدَ كاملُ الحق فيما يطلب، إنكُم إخوة وبقاؤك هنا سيزيدُ من المشكلاتِ بينكما إلى حدٍّ لا يستطيع به أحد أن يجمعكما مجدداً.

نظر أبو سالم في وجه سعد الأخ الثالث لهما، فوجده غيرَ مبالٍ بما يحصل كأنه دُفعَ عنوةً للحضور. يلف ذراعيه إلى بعضهما وينظرُ ببلاهةٍ دون أي معنى بعينيه. سأله: وأنتَ يا سعد ما رأيك. أجاب سعد:

رأيي... لا رأيَ لي لنسمعَ رأي مهند في البدابة

- عليكُم أن تحددوا بالبدء إن أردتُم رأيي بطردي من منزلِ أبي أم رأيي بوقاحتكُم هذه...!

رفع سعدٌ سبابته مهدداً: لتحترم أنك تحدثُ من هم أكبرُ منك سنـًا.

قاطعهُم القاسم: يا أبا سالم، لم أوافق وأطلب هذا المطلبَ من مهند إلا لنحفظَ حق الإخوة بينهما، فإنكَ ترى عبثهم. وفي كُل مرة نصلحُ بينهما، لكن دون جدوى والآن بات الفراق هو الحلُ ليبقى حبلُ الود موصولاً. دمُ الأخ على الأخِ ثقيل. إنّكَ تعرفُ ذلك حقَّ المعرفة دون الجميع، ومهند سيبقى يعملُ بالدكان، ولن أسمحَ لأحدٍ بأن يمسَّ سبيلَ عيشه. أمَّا المنزل، فلم يَعد بإمكانه البقاء به، وسهلٌ عليه أن يجد لنفسه مسكنـًا في الخارج. لا أقولُ هذا نصرةً

لأحمد على أخيه فقط، بل أيضـاً لأنَّ زوجة أحمد شقيقتي، ولا أقبل لها أن تجدَ مومساً في منزلها مرةً أخرى. إنه عارٌ لا يُمسح. وقد بلغنا عذرنا معه وحذرناه مراراً، ولكنه لا يعقل، وهذا ما جناه على نفسه.

كانَ الحلبي في بادئ الأمر يسمعُ الحديثَ ولا يفهمُ متنه، إلّا أن خيوط القصة كانت ترمى بين يديه تباعـاً، ولـم يعنِه سبب النزاع بقدر ما يأسى على حال مهند أمام عينيه. تذكر نصـاً مِن الإنجيل كان قد سمعه "من كان منكم بلا خطيئةٍ، فليرمها أولاً بحجر" نقَّلَ بصره في وجوههم سائلاً نفسه: هل هم بلا خطيئة...؟ وهل أمنوا على نفوسهم مِن غدٍ حتى يرجموه اليوم...؟!

قال أبو سالمٍ وأعصابه قد استنفرت حتى أنّ ركبتيه بدأتا ترتجفان، فقد استُفزَّ حين لمحَ سخريةً مبطنّةً من القاسِم لحظة أشارَ لتجربته بخصامِ الإخوة: هذا ليس حلاً تريدونَ نبذَ الرجُلِ بدافع حرصكُم على بقاء الود.

أجاب أحمد: لا حلَّ سوى هذا، ليس بوسعِ أحدٍ منا أن يقبلَ أفعاله.

أعدلَ الحلبي حالَ جلسته، وفردَ صدره وهو يقول: عذراً من السامعين.

ونظرَ إلى أبي سالم، فأخذَ منه إيماءة السماحِ بالحديث، فاستأنف يسألُ: لمن هذا المنزل؟

أجاب القاسم:

منزل العائلة

والدكان؟

- لهم جميعـًا.

- ألكم غيرهما في الميراث؟

تدخلَ أحمد وأجابَ بنبرةٍ جافة: أنتَ ضيفنا... ولك علينا حق الضيف على مضيفه، ولكن لا يحق لك أن تتعدى خصوصيةَ غيرك.

قال سعد وهو يمسك بيد أحمد ليسكته: لا... دعه يكمل.

لم يعبأ الحلبي بما قيل، وتابع كأنه لم يسمع شيئـًا:

إذاً العقدةُ محلولةٌ لا ريب. إن لم تحل اليوم، فستُحلُ بالعاجل القريب. ولكن دعني أسألك يا مهند، أيسوؤك أن يباع المنزلُ والدكان ليأخذ كُلٌّ فردٍ منكم نصيبه؟ شاءَ الحلبي أن يستفزَّ الحاضرينَ بسؤاله، فوجّه السؤالَ إلى مهند دونَ البقية، وقد بلغ غايته. حينها نظرَ مهند إلى إخوته... كانت ابتسامةً عابرةً حطت على شفتي سعدٍ وغادرت. أمَا أحمد، فكانَ عيناه تقدحان عداءً، وقالَ من فوره: ما بال صاحبكَ؟! أتيتَ به ليصلح بيننا أم ليفرق شملَ العائلة كلها؟

اعترضَ القاسم:

إنكم تعلمون أنَّ فكرةَ البيع غير مقبولة الآن؛ لأنها ستضرُّ بالجميع، ولا تكفي قيمة المنزل والدكان لشراء منازل أخرى لكل منهما أو إنشاء أعمال مستقلة.

إن القاسمَ كما يعلمُ أبو سالم في قرارةِ نفسه كان يرجحُ كفةَ أحمد في الميزان ليسَ محبةً له، إنما لأن أحمد زوج شقيقته أيضًا، فكلاهما متزوج شقيقة الآخر. ويهمه أن يجنبَها ضيقَ العيش ونكده. وعلى العكس لم يكن يهمه بأن تحصلَ زوجته التي هي شقيقة الإخوة الثلاث على نصيبها من إخوتها. فعنده ما يكفيه الطمع بحقها.

قال مهند: حسنًا نفعل... لا مشكلةَ عندي، لنبع ويأخذ كُلُّ ذي حقٍّ حقه.

صاحَ أحمد: نبيع...! أيها الغافل... لا زوج لك ولا ولد لتخشى عليهما. أتريدُ أن نرمى بالطرقات؟ آه! لتقلبِ الحياة الغادرة انظروا إلى هذا الحال الذي وصلنا إليه، إن مصيرَ عائلةٍ بأكملها أصبحَ مرتبطًا برأي هذا الأحمق.

قال سعد وهو ينظر بطرفِ عينه إلى أحمد: حقًا لا أفهمك، إنَّك مستاء من مكوثكما معًا، وبالرغم من هذا تحيدُ عن الحلِّ وقد وجدناه، وفي النهاية لا مناص لنا من الفرقة، لنفترقَ على خيرٍ إذاً وكلنا راضٍ بنصيبه.

(7)

مشت رشا وزوجها والقمرُ ثالثهما يتلألأ في سماء المدينة الصافية والصقيع قد انحسر، فكانت مشيتهما المتأنية تبعثُ الدفء في جسديهما. علّقت ذراعها بذراعه وجذبت جسده نحوها بعناد، فرحةً جذلة بكُل ما اجتمع لها في هذه الليلة، لقاءها بعمها وصديقتها، الليل الرائق والنسيم الرقيق، شعرت أن كُل ذرات الوجود باسمةً لها تسعى بين يديها، فكانت كندفات الثلج خفّةً وتستنشق الهواء بتلهف الغريق، ثُمَّ تميل إلى كتف زوجها، فتشم عطره والنشوةُ تغشى فؤادها.

قال الحلبي: أأسعدتكِ رؤيةُ عمك؟

- أعادتني رؤياه إلى زمن كُنت فيه أذهب إلى بيته مع ابنته، وحينَ تتهامس عائلتي باسمه وبأحواله كنتُ أسأل عنه كأني لا أعرفه، فتجيبُ أمي على أسئلتي بصوتٍ خفيضٍ كأنها تودعني سرّها. ويبدو أن حالتها الحذرة في ذلك الوقت هي ما أوحت لي بأن رؤيته ممنوعة بالرغم من أنه لم يحذرني أحدٌ من الذهابِ إليه أو مخالطةِ ابنته. ومع ذلك كنت أتردد إليه خفيةً بشكلٍ دائمٍ كلما عدنا من المدرسةِ.

- إذاً، أسعدتك الذكريات وليست رؤيته.

- لا تفلسف الأمر... إن المرء ليقلقُ من أن يقول لك شيئًا خشيةً تأويلك للأمور، فإنك كثيرُ التفلسف والتصدر. ثُمّ

أكملت وهي تفتعلُ العبوس بوجهها وختمت كلامها بضحكة: اهدأ حتى تمضي ليلتك على خير.

حاول الحلبي أن يجيبها، ولكنها قاطعته مجدداً: ولكن أتدري... ربما معكَ حق... إن رؤيةَ صديقٍ قديم تقشطُ كمخَ الأيام عن الذاكرة، فتسعد ليس لرؤيةِ صديقك فحسب، إنما لرؤيةِ أيامك القديمة فيه. إنك تستحضرُ أمسكَ برؤياه. ولكن السعادة مقرونةٌ بالحسرة؛ لأن ما فاتَ لن يَعود.

قال الحلبي: نعم هو هذا... إنَّ اللقاءَ بشخصٍ من شخوصِ الذاكرة يزرعُ بالنفس أملاً باسترداد الماضي. ولكنَّ هذا الأمل ما يلبثُ أن يزول، وكما قيل: المرءُ لا يعبرُ من نهرٍ مرتين. كُلُّ شيءٍ يتغيرُ بمرور الزمن، الأحلام، والأفكار، والأجساد، والضحكات، فيزول الأملُ، وتحلُّ مكانه الخيبة.

قالت رشا وقد أخذها الانفعال: يا لروعةِ تأويلك للأمر!! ولكن لتغلق فمك عن هذا الأمر الآن، ولا تُكمِل كيلا نفسدَ سلامَ هذه الساعة، ولكن ومع أني أحبكَ بكُلك، تَعَلم أن تعيش دونَ تأويل لما ترى كيلا تفقد سعادتك. إنَّ البحثَ بما وراء الأشياء يفقدها لذتها ويورثك الكمد، هيا... هيا ما رأيك أن نسلكَ هذا الطريق؟ وأشارت بعينيها نحو دربٍ تطلُّ عليها نوافذَ بنّيّةَ اللون وبه أشجارٌ عاريةٌ من الأوراق إلا قليلاً، إنَّ هذه الدَّرب تبعدهما

عن المنزل أكثر، فآثرت رشا أن تسلكه لتطيلَ روح اللحظةِ. أجابَ الحلبي: أخشى على ابنتنا بأن يصيبها شيءٌ من البرد.

- ضمها إليك أكثر، لن يصيبها شيء.

كانا قد افتقدا أمثال هذه اللحظة الهانئة منذ حين. سرَّ الحلبي بأن زوجته بهذا المزاج الرائق الآن، فوضع نفسه تحتَ أمرها لا يهمه سوى أن يطولَ هذا الهناء قدر المستطاع. قال: لا تغريني برقتك الزائدة هذه... نحنُ على مرأى من النَّاس.

أجابت بدلعٍ متدفق: فإن لم نكُن على مرآهم... ها... قل لي: ماذا ستفعل؟

لأحبنّك كعاشقٍ نال وطره بعد ظمأ.

- دعكَ من التشبيهات... أريدُ تفصيلاً. ابتسمت وغمزت له.

غذَّ الحلبي الخطا وهو يبلعُ ريقه: أيعجبك إذاً أن نلهو كما المراهقين على عتبات الدروب.

ويحكَ!! كم تتعقل؟ ستموتُ قبل أوانك إن بقيتَ هكذا. افتح صدرك للحياة... عشها.

وقف الحلبي برهةً، ونظرَ إليها بصمت، ونظرت نحوه، فنقل ابنته إلى يده اليسرى، ورفع يمناه، فأحاطت بكتف رشا ورقبتها التي كانت مزدانةً بشالٍ صوفي داكن اللون وشدها نحوه. أخذ يسير ببطءٍ يستقبلُ العالمَ بصدر المُحب، إنَّ حباً غمرَ قلبه لرشا في هذه الساعة حباً نهض من تحت الرماد بعد أن ظنّ بانطفائه، فكّرَ: منذُ

زمنٍ لم أنل ساعة صفاءٍ كهذه، أتراها الحياةُ قد سرقتنا من أنفسنا، أم سرقت أنفسنا منّا الحياةَ؟!

إنَّ رشا بعينيها اللوزيتين اللامعتين ومعطفها الرمادي القديم الذي كان يخفي تحته جسداً مكتنزاً ووجنتيها اللتين صبغتا بالحمرة بفعل التقاء الدفء والبرودة، وضحكتها الآسرة جعلت زوجها توّاقًا للانفراد بها بعيداً عن الأعين، ذاكَ أنه قد مرَّ زمنٌ ولم يلتقِ به الجسدان، كانا في هجرانٍ غير معلن، هجرانٍ وانصرافٍ مسكوتٌ عنه، نفورٌ كان يراه كُلَّ واحدٍ بعينَي الآخر، فهو تغلي العاطفةُ في جوانبه وهي ظمأة لها، لكنّهما يكابران، فقد تصحرَ جسدها وتعبَ طلبًا بأن يسقى، فكانت تلجُمُ رغباتها وتطفئها، فيزيدُ ضيقها وتتفاقمُ المشكلات، إن ضيق العيشِ ومنغصات الحياة سبّبا هذا الهجران، ولجمُهما لرغباتهما الإنسانيّةَ اللحوحة زاد الطينَ بِلّةً، فإن مرَّ بهما حدثٌ من أحداثِ الأيام صغير يمكن تجاوزه، عملَ هذا الحرمان المبطن إلى تهويله.

فكان الحلبي في هذه اللحظات همّه الأوحد أن ينالها، وكان همّها الأوحدُ متعة الساعة التي تعيش. فأجبر نفسه على مداراة رشا والبقاء في الدروب، وهي في مكنون نفسها سمعت أجيجَ الشهوةِ من صدره، تلقفت أنفها رائحة الجسدَ التواقِ لها، فراوغت وباتت تُطيلُ الثواني، وتزيد ناره اتّقاداً بدلعها. وجدا على جانب الطريق موقفًا فارغًا لحافلات النقل الداخليّة، وبه كرسيان

خضراوان، فجلسا حسبما طلبت رشا. جلسا صامتين، وأطبَقت عليهما الأفكار الدنيويّة، عادت خلسةً لتسرقهما، فكانا ينازعان الهناء، فيرى الناظر إليهما ضحكةً يتبعها وجومٌ طويل، ووجهًا صافيًا لا يلبس أن يُقطَّبُ كأن صاحبه في عراك. ثمَّ تلحظ سلامًا يتبعه ضيقٌ وهدوءٌ. أحسّ الحلبي بهذا النزاع الشرس، وبأن أفكاره سوف تختلس منه البسمةَ إن أفسح لها المجال، فلوحَ بيده كأنه يطردُ شيئًا من أمامِ عينيه، ورشا تسأل سؤال من يعرف الإجابة: أين ذهبتما أنت وعمي؟

- إلى مهند... أتذكريه... هو نفسه الذي يزورني منذ أيام.

لم تكن رشا تعلمُ أن جار عمها سيئ الصيت الذي حُدِّثَتْ عنه هو نفسه صديق زوجها الجديد الذي يتردَد إلى بيتها، فكان أمراً مدهشًا لها. هزّت برأسها صامتة، فأكملَ الحلبي: له أخٌ خبيث يتحايلُ لإخراجه من المنزل. أين وصلنا؟ أهكذا يكون الأخ لأخيه؟ إننا نرى من زماننا العجاب.

أزعجتها الإجابة، فقالت باتجاه آخر: أخبرتني أم سالم أنّه رجلٌ سيئ السمعة، وهذا سبب مشاكله مع إخوته.

سيئ السمعة! ليس هناكَ تفاضلٌ بالأخلاق بين البشر، نحنُ نشتركُ بالخطيئةِ... وصاحبُ الطهارة لمَّا يُفتضح أمره بعد.

قالت رشا:

إنّك تنبذ الفضيلةَ من المجتمع كأنها أكذوبة وتُهينُ الإنسان، وتحطُ من عمله، وهذا كلامٌ لا يسمع...! فإن كان صاحبكَ رديءَ السمعة لحوحًا على أعماله، فلا يعني أنه مستقيم الممشى غير مُتلوّن. وأن البقيةَ كذوبون مخادعون.

– لستُ بهذا السخف، وما كان مقصدي ما فهمته أنت. إنما أنَّ الخطيئة تجمعنا، فليس علينا أن نستعلي على من أخطأ وننبذه، إنه ليس مريضًا بالطاعون لنتاحشاه، وليس مرتكبًا جرمًا لنعاقبه. بل من الضرورةِ أن نعترفَ دون احتقارٍ لأنفسنا أننا جميعًا نشتركُ بفعلِ الخطيئة، وذلك لنفهمَ قدرَ الفضيلة عندما نتبنّاها، فلا يُفهمُ الماءُ دونَ العطشِ. آهٍ كم نعتدُّ بأنفسنا كأننا المقياسُ الأوحد للفضيلةِ وما دوننا شر!

– دعكَ منه، فالصاحبُ يعلِّمُ صاحبه ويميلُ الإنسانُ للذة المحظور أكثرَ من ميله للمباح. دعكَ من صحبته يا خليلَ فؤادي.

كان الحلبي من الرجال الذين يزعجهم أن تملي عليهم النساء أعمالهم ورشا تعلمُ هذا الطبع من طباعه، ولكنها لم تمتنعُ يومًا عن فعلها هذا، فهي لا تكتمُ داخلها خاطراً أتاها، وأحيانًا كانت تتعمدُ أن تملي عليه أفعاله بغيةَ إزعاجه ومناكفته. أجابَ وقد فردَ ظهره وصَحَت عيناه: حسنًا لتملي عليّ صحبةَ مَن تناسبني ومن صحبته تسيءُ لي. علميني كيفَ أعيش.

- ولِمَ لا أملي عليك كما تملي عليَّ دون أن أتبرمَ من قولك.

إنّه وهو ينظرُ الآن في عينيها ليستمدَّ من سحرهما جواباً يبقي على الصفاءِ بينهما مرَّ أمامه يحيى المجنون، حتى إذا ما صار غيرَ بعيدٍ عنهما تسمّرَ في مكانه وهو يخفي كفه الأيمن كعادته داخلَ معطفه، وينظرُ إلى رشا ويشيرُ إلى زوجها بحركاتٍ متقطعة مضحكة، ويغمغمُ كأنَّ عنده أمراً مُلِحّاً يحاولُ شرحه، فيفشل، فيعيد دون إبطاء. عاجله الحلبي: هيه يحيى تعال، فاقترب. ودون أن يتحركَ يحيى من مكانه استمرَّ بالغمغمة والميلان إلى الأمام والخلف. سألت رشا: من أين تعرفه؟ أحسَّ الحلبي بقلقها، فنهضَ إلى المجنون وهو يقول وقد أيقن أن لا مجالَ لصرفه: وهل من أحدٍ في المدينةِ لا يعرفُ يحيى. ومشى إليه، فعدّل من ياقة معطفه، وأقفل أزراره: ما الذي أتى بكَ الآن؟ ألا تعلم أنَّ والدتكَ لا تنام قبل عودتك. تعالَ تعالَ، فإما أن تجلسَ وإما أن تذهب عنا، فوقوفكَ يا صاحبي على هذه الهيئةِ يُخيفُ المرأةَ. شَعرَ الحلبي بتفوقه ونصره وهو يرى أن المجنون ينصاعُ لكلامه ويسيرُ بهدوءٍ ليجلسَ على حافة الرصيف أمامهما. فعادَ الحلبي جانبِ زوجته قائلاً باستغراب: ما كنت أحسب أن المجنون يفهمني. أجابت رشا وعلى جانبِ ثغرها رُسِمَت ابتسامة: إنَّ الجنونَ أيضاً من حذقِ العاقلِ، فلا تستغرب تفاهمكما.

بقيَّ يحيى ينظرُ إليهما بخجلٍ كأنه يعلمُ ويعي أن حديثهما يدورُ حوله، فقالت رشا وهي تتجنبُ النظرَ مباشرةً إلى عينيه: لتعلمَ أنّ المجانينَ هم أكثرُ النَّاس خوفًا من النَّاس وكأنَّ لهم عينًا ثالثة ترى فوقَ ما يراه بقيةُ البشر. سبحانكَ ربي كَم أنَّ وجهه مألوفٌ لدي! غريبٌ أن تكونَ هيئته بهذا التهذيبِ، وليسَ على وجهه وعثاء السفرِ المستدام.

أشبعَ تميم استغرابها بإجابته وهو يقول: له أمٌّ تحميه وتدفعُ عنه ما استطاعت كُلَّ شائبة من شوائب الدهر. في زيارتي الأولى إلى منزل عمّك التقيتُ بهذا المجنون عنده، وأوصلته إلى منزله، ولا عجبَ بأن يكون وجهه مألوفًا لك، فربما لمحته أيامَ طفولتكِ.

حين أوصلته إلى منزله وقد كنت رفقةِ مهند، استقبلتنا أمه هناك وقد ألحَّت هي ويحيى بأن نشرب الشاي عندها. تعلّقت بنا بشكلٍّ لافتٍ. لو رأيتها لأشفقتِ عليها، قد بلغت مِنَ الكِبَرِ عتيًا كأنّها ولدتَ مع ولادة الزمانِ، وشهدتَ على كُلِّ قيامة فيه، وعاقبها الموتُ بأن نسيها! ربما نسيها عطفًا على هذا المجنون، أو سئمًا من إلحاحها عليه بأن يأتي. من يدري شكل الحكمة خلفَ الأشياء؟ سَمعتُ منها أنها في كُلِّ ليلةٍ تتمنى أن يأتيَّ الموت إليها، فلا يطلع عليها صباحٌ جديد، ثُمَّ تنظرُ نحوَ ابنها، فتندمُ على ما تمنّت. إنَّ وجهها، ذاكَ الوجه الذي يحملُ في تجاعيده سِماتَ الهيبة والتوسل في آنٍ، به سماتُ الصدمةِ والترَّقب أيضًا، فتريها لا

تستكينُ جالسةً إلى حين، بالرغم من عجزها تجيءُ وتذهبُ نحو النافذةِ كأنها في انتظارٍ سرمدي لشيءٍ لن يأتي يوماً. حين أردنا مغادرتها أمسكّت يدي ولم تدعني إلى أن أخذت مني عهداً بزيارتها مرّةً أخرى، أخبرتني أن الرجالَ يلتزمون بالعهود حينَ ينطقون كلمةَ العهد. أكثر من الوعودِ الاجتماعيّةِ اليومية التي لا يضطر بها المرءُ لكي يقول: عهدٌ عليَّ أو وعدٌ مني، فتلكَ وعودٌ يندرُ أن يتم الوفاءُ بها.

إن ابنها لم يَكُن مجنوناً، فحسبما أخبرني مهند أنه سَمِعَ أن هذا كان عاقلاً مثل أيِّ شخصٍ آخر. ومنذُ سنواتٍ غابَ عن الحي لشهور عدة دون أن يعلم أحدٌ عنه شيئاً، وتقطَّعت بأهله الأسباب بأن يجدوه، لم يتركوا حيَّاً من أحياءِ المدينةِ إلا وبحثوا فيه، لم يتركوا باباً للدولةِ والمستشفياتِ إلا وطرقوه، ولكن هدراً كانت تذهبُ محاولاتهم لإيجاده، وذاتَ يومٍ عَثَرَ عليه مصادفةً أحدُ رجالاتِ الحيِّ نائماً على أرضِ واحدةٍ من الحدائقِ العامة، بحالةٍ مزريةٍ من الاتساخِ والخوفِ والتخبّط، لقد غادرَ الحيَّ مكتنزَ الوجنتين مفعم الروحِ بعنفوان الشبابِ، وأُعيدَ بعدَ شهورٍ قليلة كالجثّةِ المشوهةِ، فقدَ كُلَّ نبضٍ للحياة، وكان شعره أبيضَ كأنه في الستينِ من عمره، وأسرف وزنه في النزول حتى بدا كأنّه آتٍ من مجاعة، خيالُ جثةٍ مضغها القبر، فانسلت هاربةً منه.

قاطعته رشا بصوتٍ خفيض وهي ما تزال تُراقبُ حركات يحيى بطرف عينها: ما بالُ يده مضمومة إلى صدره، أبها إصابةٌ أو عجز؟

- لا أدري.

- أيكون قد حُبِسَ في إحدى السجون؟!

- هذا أولَ ما تبادرَ إلى عقلي حينَ أخبرني مهند بما سَمِعَ من قصته. وأمه لم تخبِر أحداً بشيءٍ عمّا تعرف، حينَ تُسأل تُجيب بأنها جاهلةٌ بحقيقةِ ما جرى، ذهب عاقلاً وعادَ مجنوناً، وهذا نصيبنا من الحياةِ، وإننا لراضون به كيفما كان. إنه سرٌّ، والنَّاس لا تخفي الأسرار طواعيةً، الخوفُ يجبرها على الكتمان، ولكن يبدو أنه صديقُ عمّك، فهما من نفس الجيلِ، ولا بدَّ أن يكون عمّكِ مُلمّاً بالأمرِ من أوله.

استند الحلبيُّ إلى كرسيّه وهو يزفرُ: آهٍ على هذه المدينةِ كم يكتمُ أهلها مِن أخبار!! إنّها ودون منازع مدينة الخوف والكتمان. اقتربَ من رشا وأحاطها من جديدٍ بيده، فأسندت رأسها إليه بينما نهضَ يحيى وراحَ يمشي بخطا رصينة وحيداً في منتصفِ الطريق وعيناهُ ساهمتان نحو السَّماء الفسيحة، وهما يراقبان خطواته وابتعاده إلى أن غابَ عنهما، وبقي الليلُ بينهما طويلاً وغيمةُ الحب تسقيه.

(8)

صادف اليوم التالي لصراع مهند مع إخوته أن كان يوم جمعة، يومٌ مريحٌ يجلله سكونٌ متَّزن وليس من عادة مهند في هذا اليوم من الأسبوع أن يبدأ عمل الدكان في وقتٍ مبكرٍ كباقي الأيام، لكن ليلته التي باتها كانت تحرقُ نفسه كأن فراشه وعاءٌ نحاسيٌّ نيطَ بمِرجَل، ونفسهُ تقززت من رؤية من يسكنون الديار وقد سكنته كراهيةٌ جمّة نحوهم والكراهية المفرطة لمدلولات الوجود لـ: الناس، والطير، والهواء، والشجر حتى لجلدك الذي يكسوك إنه الشعور الذي يلي الخيبة. فنهضَ ساعةَ الضحى، وبدأ يومه في العمل. وأخذ يعملُ واجمَ النظرات وهو يردد بصوتٍ مفهوم... أهكذا... أبناء الّذين... يريدون رمييَّ كثمرةٍ عفنة كحذاءٍ مهترئٍ ليس له قيمة؟! إخوتي! أبناءُ الّذين...

شغل نفسه بالعمل، فراحَ ينزلُ بضاعته عن الرفوف ويطرحها أرضًا، فينفضُ عنها الغبار، ويمسحُ الرفوفَ بكرهٍ، ثم يملؤها من جديد. وهو يردد نفسَ الكلمات: أنا حذاءٌ يملكه أبناءُ الذين. وبقيَ على حالته هذه بعضَ الوقت، وحينَ ملأ الغبار صدره خرجَ ليتنفس هواءً نظيفًا خارج الدكان. وقفَ ممسكًا خواصره وعيناه ملأهما التحدي ينظرُ في طولِ الشارع وعرضه ونحو بيته ناقمًا على كُلِّ فردٍ يسكنُ الحي.

وهو كذلك خرجت بثينةُ من المنزل سائرةً باتجاهه والتقت عيناهما من بعيد، فآب عائداً إلى داخل الدكان، فقد اعتراه الخجل، ولم يشأ أن يبقى واقفاً ينظر إليها، خجلٌ لم يكن واعياً؛ بسببه تماماً إلا أن قصته التي تداولتها الألسُن وبات يراها في عيون جيرانه المتغامزة عليه واللامزة باسمه تركت بنفسه أثراً. فصارَ أشدَّ غضباً وتمرداً، وكذلك أشدَّ خجلاً من البعض القليل.

كانت بثينة قد رأته ساعةَ الصَّباح حين خرجَ للدكان وبقيَّت نفسها تغالبها ساعة أو اثنتين للخروج إليه. لم تكن تحتاجُ إلى سبب للخروج من المنزل إلى الدكان، فهذا أمرٌ مشروع عند أمها، ولا تعترضُ عليه، ولكنها كانت وجلة من رؤيته. قالت وقد رأته ملتفتاً إلى عمله: صباح الخير.

إن لثغتها بحرف الراء نالت من نفسه، فابتسمَ لسماعها، التفت إليها وهو يردُّ التحيةَ، فإذا ببثينة تقف أمامه متوردةَ الوجنتين وجبينها متعرقٌ كزهرةٍ يغطيها الندى. انتظر برهةً أن تقول له ما تريد، لكنها بقيت متسمّرةً أمامه مثلَ تمثال دون حراكٍ أو صوت، وبفطنته علم أنها لم تأتي لشراء حاجةٍ، إنما لديها كلاماً تريدُ قوله، فتداركَ الموقف برفق وقد تبدّلَ مزاجه، ومشى من آخر الدكان إلى خلف مكتبه الصغير، وسألها عن حالِ أبيها ليكسرَ الجمودَ الذي حلَّ بينهما، أمّا هي، فكانت تحاول استرداد الكلام الذي سهرت

ليلتها تفكرُ بقوله تحاول استحضاره وتفشل، فكانت أشبه بالبلهاء التي لا تدري ما تقول، ولكنها بلاهةُ الحبّ تزيدُ المرءَ جمالاً.

وفي هذه اللحظة حملت النسماتُ عطرها، فتسلل بين الغبار إلى أن وصلَ أنفاس مهند، فجعله أكثرَ انشراحًا. أجابت الفتاة بُعيد صمتها: سمعنا من والدي ما جرى معك ليلة أمس، إني آسفةٌ لذلك، فأنت لا تستحق كُلّ هذا العناء، وخطأك أصغر من أن ينال هذا الجزاء.

كانت شفتاها ترتجفان وصدرها الهائج يوثرُ في استقرار صوتها، يخفقُ صدرها خفقانًا لو رآه الرائي، لحسبَ أنها انتهت لتوّها من صراعِ ثور. قال مهند وقد جلس: آه..! وصلت سيرتي إلى مسامع الجميع، أيُّ حال هذا الذي بتُّ فيه؟

إنَّ مهنداً يرى أمامه فتاةً عاشقةً وقد فهم هذا من انفعالاتها غير المبررة وخجلها الساذجِ وقد ساءه ما يرى لحظة فطِنَ له، فهو يعلم أن الحب يورث الكآبة وقد جرّبَ آلامه، وخَبِرَ توابعه، ويحزنه أن يرى إنسانًا يحملُ الحب في عينيه. وهي عاشقةٌ له وليس أمرها كأمرِ غيرها ممّن عرف، فارتبك كما لم يرتبك يومًا، وقال كلامًا لم يكن ليتذكره بعد قوله. لكنه بعد برهة استجمع نفسه المشتتة وسأل بثينةَ مواجهةً: أتريدين أن تقولي شيئًا، شيئًا ما تخفيه تحت لسانك؟ ونظر إليها نظرةً سابرةً اخترقت قيعان وجدانها، وزادت من ارتباكها، فأدركت أنها كُشِفَت بسهولة، وأنها كانت واضحة إلى

حدٍّ يغني عن القول. أجابت وهي تهزُّ رأسها بالنفي يميناً شمالاً: لا شيء، فقط لتعتني بنفسك، وغادرت بخطوات عجولة.

قام مهند ودار دورةً هائمةً في محلّه، ثم ارتمى على كرسيّه ناظراً نحو السقف وبيده سيجارة لم يشعلها.

***

كانت بثينة قد ردَّت باب المنزل دون أن تغلقه؛ كيلا تضطر إلى قرع الجرس عند عودتها، فنسخةُ المفتاح المفردةَ لديهم معلقة بغرفة الجلوس، ولم تشأ أن يلاحظَ أبواها خروجها. حين عادت اتجهت من فورها إلى المطبخ، وبدأت بإعداد الشاي. كانت يداها وركبتاها ترتجفان بشدة، حتى قلبها وأقصى الخلايا في أعماقها ترتجف وجسدها قد تبلل من شدةِ التعرق، أخذت تلوم وتؤنب نفسها على ظهورها بمِظهَرِ البلهاءِ أمامه. قالت بصوتٍ هامس: يبدو أنه فهمَ ما بي. ثم تبسمت وهي تقنع نفسها بأن شيئاً سيئاً لم يحدث، فمهند قد اعتراه ما اعتراني من ارتباك، وأي ضير في ذلك؟!

كان والداها قد التزما غرفة الجلوس، تعملُ أم سالم على تنظيف الغرفة بهدوء، وزوجها جالسٌ بثياب النوم بصمت، إنه يومُ عطلته التي لم تكن بالنسبة إليه عطلة كاملة، إنما راحةٌ من العمل إلى ما بعد الظهيرة دون زيادة، فيتمم تحضيرَ عربة الفول قبل صلاة الجمعة، وبعد أن يتناولَ فطوره يتجه بها إلى المسجدِ ليصطفَ مع

الباعةِ الآخرين عند بابه، ويمضي إلى الصلاة في الصفوف الأخيرة، وإذا ما انتهت الصلاة كان أولَ الخارجين من المسجدِ، فيضمنُ بذلك ألا تؤخره أزمة المصلين وتدافعهم عن الوصول إلى العربة.

دخلت أم سالم المطبخ، فوجدت بثينةَ شاردةَ العقلِ وتهزّ ركبتها على نحوٍ سريع يشي بتوترها، قالت: ليتني أعلمُ بما تشردين هذه الأيام، كثُرَ شرودك. هيا... لنسرع بإعداد الفطور وبين حركةٍ وأخرى كانت العائلةُ ملتفّةً حول المائدة، وقد شرعوا بفطورهم. إن المرضَ الذي ألمَّ بأبي سالم وتسبب بانقاطاعه الجزئي عن الطعام جعلَ شهيته الآن مفتوحةً متدفقة، فتراه يأكلُ باستمتاعٍ ونَهم كبيرين، أما بثينة، فتناولت نصف رغيفٍ مع بعض الزيتون، ونهضت عن المائدة، وانزوت بعيداً بيدها كأس شاي. كان أبو سالم يلاحظ حالتها منذ أيام، لكنه لسببٍ لا يعلمه لم يجرؤ على سؤالها عن ماهية حالتها تلك. تقلّب مزاجها وعبوسها، وفقر كلماتها، وعزوفها عن الطعام، كل هذه الأمور كانت تقفُ مثلَ شوكةٍ تهدد عينه، فيكتفي بأن يخبرَ أم سالم بضرورةَ زيادة الاعتناء بابنتها.

كانت بثينةَ تشغلُ باله، ولها حيّزٌ من تفكيره، وعن مستقبلها على وجه الخصوص كان يتمادى في أحلامه، فلا يهتمُّ لحدود الواقعِ المغروسة حول أيامه، وكأنَ الحلمَ رهن إشارته يقولُ له: كُن فيكون. حلمٌ بمستقبلٍ أفضل، هذا الحلمُ الذي يحلمه جميع

مَن يحملون صفةَ الآدمية، ولا يأبهون بتاريخ لهم من الهزائمِ، فيُهزَمونَ ويحلمونَ، ثُمَّ من جديدٍ يُهزَمون. وكأنَ حريّة اختيارِ الهزيمةِ نصرٌ على نواميس الوجود كلّه، ولحظاتُ تفكيره بابنته التي يحسبها طويلةً عظيمة هي في حقيقتها لحظاتٌ قليلة عابرة إن قيست بما يعتري عقله من مسائلَ أخرى، فهو يبدو لمن يراه هادئ الفكر، لكن داخله يعصُفُ بدوامةً لامتناهية من الأفكار لا يلاحظها أحد، فلا يستكين عقله لحظةً، ولا تهدأ نفسه من همٍّ إلا ويحتملها همٌّ آخر، فكان في بعض أيامه يُنهَكُ من ثقَل التفكير، وترتعدُ أعصابه من كثرةِ الشدِّ، فيبحثُ عن النوم ليرميَ حمله على الوسادة، وبعد ذلك يتخلى عن كُلِّ أحلامه دفعةً واحدةً، ويعودُ فقيرَ الأملِ. وهكذا يعودُ إلى المنزل بعد غروب كل يوم، فيتناولُ عشاءه، ويقضي ضروراته المُلِحّة، ثُمَّ يستقبلُ النوم، فتفشلُ بذلكَ خططه بأن يُحدّثَ ابنته ويقوي علاقته بها ليكونا كما الأصدقاء لا حرجَ بينهما، فيستطيع حينها الولوجَ إلى أعماقِ وجدانها ومعرفةِ ما لا يعرف. لكنه يجدُ نفسه في نهايةِ كل يومٍ كما الآلة يعمل... ويعملُ... ويعمل، ثُمَّ يُطفأ.

وحين انزوت بثينة جانبًا تشربُ الشايَ عاده هذا الخاطر وساءه فشله، فشله المتكرر بفهمها، ساءه أن تكون لوحة وهو كما الضرير ليس له منها سوى تحسس الإطار، فلا يعلمُ ألوانها النضرةِ ولا محل العتمةِ بها. قال: يا ابنتي... لم تأكلي جيداً... ما بك؟!

قالت أم سالم وهي تنظرُ بطرفِ عينها نحو الفتاة: وهل من أحدٍ يعلمُ ما بها؟ تعبَ لساني من سؤالها.

- إني أسألها هي.

أجابت بثينة: أنا على ما يُرام، لا تشغل نفسكَ بي

أحاطَ أبو سالم بأن تأنيبَ أمها لها سيمنعها من الكلام إن كان عندها شيءٌ تخفيه، فأراد أن يتحدثا منفردين، لكنه نظر إلى ساعةِ الحائط، فوجد أن الوقت فاته، فنهض مسرعًا وأتمَّ ما عليه من تحضير العربةِ، ومضى نحو المسجد، لكنَّ ابنته سقطت من عقله شيئًا فشيئًا مع كل خطوةٍ خطاها.

كان خطيبَ المسجد قد بدأ خطبة الجمعة والباعةُ المتجولون قد اتخذوا أماكنهم عند باب المسجد، ومكانُ أبي سالمٍ محفوظ من رفاقه، فما كانوا ليسمحوا لأحدٍ من الباعةِ الغرباء عن الحي بأن يشغلوه، فهذا من النواميسِ التي يضبطُ بها الباعةُ إيقاعَ علاقتهم ببعضهم، فيحفظُ كلٌّ منهم مكان الآخر إن هو تأخر بالقدوم، فإذا قدِمَ بائعٌ غريبٌ عنهم وهو ما يحصلُ كُلَّ جمعةٍ، فما كان ليجدَ لبضاعته مكانًا قُرب باب المسجد، فيمضي البائعُ الجديد بعيداً عن المسجد عشرات الأمتار، وهذا ما يُضيّقُ عليه فرصته بالحصول على الزبائن.

وأبو سالم قد مضت عليه سنواتٌ وهو يقفُ في الموضعِ ذاته كأنه مُزِجَ بحجارة الطريق مع قدمِ عهده بها، فلا تدري سواء أصارَ رماديًا كلونها أم اصطبغت هي بلونه.

نادى عليه بائعُ ليمون كان يقفُ جانبه، فنظرَ للمنادي ليعلمَ حاجته، فرآه يشير لإطار العربةِ الخلفي بعينيه. كانَ الإطارُ قد فرغَ من هوائه... والمؤذنُ ينادي لإقامة الصلاة، ولوهلةٍ ترددت خطاه بدخول المسجدِ، لكنه أطرقَ عابسًا ومضى لصلاته.

(9)

– رأيتُ في عينيها حباً ينازعُ قيوده.

هذا ما قاله مهند لصاحبه تميم الحلبي وهو يجلسُ الآن في على كنبةٍ بنيّةَ اللون مادّاً قدميه تحت الطاولة مؤزراً نفسه بمعطفه، والحلبي يجلسُ على الجانبِ الآخر منه ينصتُ إليه وقد تدفقت كلماته كأنَّ العبارات اصطفّت خلف لسانه وراحت تخرجُ تباعاً حينَ أذنَ لها.

– إنّ أمرك غريب! قال الحلبي.

– هو غريبٌ بالفعل، إني أجدُ الغرابةَ في كل شيءٍ يحصلُ لي، لكن أيّ أمرٍ من الغرائبِ تقصد.

– البارحة كنت في معترك مع إخوتك مرتكزينَ في خصومتهم لك على علاقاتك الخبيثة حسب مذهبهم، واليومَ تأتي بقصةِ حبٍّ طرقت على فؤادكَ، فشغلته. قد كنتُ قلقاً عليكَ مما أصابكَ، لكن حسبما أرى لا يبدو عليكَ ما يدفع للقلق.

قال مهند: كادَ فعلهم بي أن يقتلع جذوري. ربما لم أنسه، لكنني انثنيت عن التفكير به الآن، فرؤيتها بتلكَ الحالة كانت أكبرَ من باقي الملمّات وقد طغى شأنها على باقي الشؤون. إنه الحب يا صاحبي حيثُ الروحُ معه تحلّقُ بعيداً عن سفاسفِ الحياة.

كان الحلبي معتاداً على أن يلبسَ نظارةً طبية في المنزلِ فقط، وهو كذلكَ قد أراحها على أنفه، ونظرَ إلى مهند من فوق إطارها باندهاش، ثم قال بعد تفكير قصير: أتريد المشورة...؟

- لا أريدُ شيئًا.

- حسنًا... خذ مشورتي إذاً... اهرب من أي شيءٍ قد يشوّشُ على عقلك في هذه الفترة، فخلافكَ مع إخوتكَ أحقُّ بأن توليه تركيزك... وحسبما رأيت، فإنّهُم قادرون على إلحاقِ الضرر بكَ دون أيِّ إحساسٍ بالذنب. وإن كان حبّكَ أصيلاً، فلن تسرقه الأيام.

- ليس حبًا قد أثارت في نفسي شيئًا، لكنه ليس الحب الذي أنشُد، ربما أشفقتُ عليها وحزنتُ لأجلها، فإنها بنت طيبةٌ لو مستها نسمة لكسرتها... وأنا مَن تعرف.

دندنَ الحلبيُّ سطرَ أغنيةٍ لفيروز:

حبيتي زنبقةٌ صغيرة

أما أنا فعوسجٌ حزين

ثمَّ عدّل نبرةَ صوته على نحوٍ مفاجئ: لن يزعجكَ رأيي، أليس كذلك؟ حرّكَ مهند رأسه نافيًا، فطفقَ الحلبي يقول: إنك غيرَ مهتمٍّ بما يحدث للفتاة، لكن شيئًا ما في قرارة نفسكَ يرضيه أن تكون محبوبًا تفكرُ بك النساءُ في لياليهن الباردة، ولذلكَ تكابرُ عمّا في صدرك. حين انتهى الحلبي من كلامه لم ينتظر رداً من مهند، إنّما

قام ونظر من النافذة، كان المطرُ كثيفاً يغطي أضواء الدَّرب الخافتة. قال: لن ينقطع المطرُ الليلةَ:

قال مهند: بليّة على أبي سالم ما سيفعلُ المسكين وعلى ميقات المطر تزوره المصائب؟

تفاجأ الحلبي بهذا الجواب الذي ما كان ليخطرَ على باله. نظرَ مرةً أخرى من فوق نظارته نحو مهند، ثمّ أخذ يضحكُ ملءَ فمه، وتهالكَ على الكنبةِ من شدةِ ضحكه. وهو يعقّبُ بسخريّة: أتخافُ على أبي سالمٍ الآن!؟

صمت الاثنان وذهبا بعيداً مع أفكارهما، رأى الحلبي أنَّ مهنّداً مشتّت الأفكار تبتلعه الحيرةُ، فآراؤه تناقضُ بعضها، ولا يعرفُ ماذا يقولُ ولا على أيِّ شطٍّ يريدُ أن يرسو. ربما وجدَ قصةَ بثينة الطارئةَ مهرباً له من ضغوطِ عائلته، فأخذَ يُشغِلُ نفسه بها ليستريحَ من التفكير بإخوته... هذا هو الرأيُ الأوضحَ لحالته الآن حسبما فهم الحلبي، وبعد هذه اللحظاتِ من الصمت قال بنبرةٍ حازمة: وعلى أيِّ حال، فإنَّ أبا سالم قريبي، فإن خطوتَ باتجاه ابنته، فتلمّس مواضع خطاكَ كيلا تخطئ.

كان مهند قد نسي تلكَ القرابة التي تجمعُ أبا سالمَ مع تميم الحلبي، فارتبكَ، ولم يظهِر نسيانه: سمعتُ بذلك وكنتُ سأسألك عن تفاصيله... كيف ذلك؟

أبان الحلبي أصل الحدث وفروعه، فكان مهند يهزُّ رأسه وهو في قرارة نفسه شاردٌ يلوم غباءه... كيف تحدث عن الفتاةِ لقريبها. قال الحلبي وقد تفطّن لما يعتملُ في خاطر مهند: لا تُشقِ نفسك يا صاحبي، فإنّك لم تخطئ بشيءٍ وقد أفضيتَ لي بما غشيَ فؤادك. مدَّ مهند يده إلى كأس ماء كانت أمامه وشربها دفعةً واحدةً وقال وهو يمسحُ بإبهامه ما علق من الماء على شاربيه: لننظر ما تداري خلف ضبابها الأيام. ثم غادر.

كانت رشا تقف جوار نافذة غرفتها تُحيط بها العتمة، وانعكاسٌ خافت من أنوار الطريق يلمعُ في عينيها، تتابعُ تساقط المطر وتراقبُ طرقاته على زجاج النافذة كأنه يتوسلُ الإجابةَ للدخول. إنَّ هذا الطقس الآسر يدفعُ النفسَ عنوةً للسكينةِ والتزام الهدوء. فكانت تستمعُ بإنصاتٍ إلى حديث زوجها وصاحبه اللذين يتحدّثان بصوت واضح تفهمه كأنها جالسة جانبهما. إنَّ نفسها سعيدة بصحبة زوجها لمهند، فهي معجبةٌ به من حيثُ لا تدري، إنه إعجابٌ بريءٌ كما يعجبُ أي مشاهد بشخصيةٍ تلفزيونيةٍ، فتكون الأثيرة لديه، لكنه إعجابٌ ضِمن المحظورِ في ناموسِ تربيتها، ومن خلف وعيها، كان هذا الإعجابُ الطارئ يشعرها بارتكابِ ذنبٍ ما، وكأن براءتها لوثت، فتقوم نفسها بجلدِ نفسها، وتدفعها للتعريضِ بالرجل حتى تتطهر.

خرجت إلى زوجها بعد رحيل صاحبه وهي تقول بهدوء لمَّا يغادرها بعد: حاول أن تتحاشى مقاربته، إنه ليس على شاكلتك، لقد صُدمت بما سمعت منه الآن.

ردَّ الحلبي: لم يُخطئ بما قال، لقد كان حائراً يعاني الوحدة، وأرادَ البوحَ ليشفى. إنه شعورٌ مروّع أن يحتاجَ الإنسان لمن يسمعُ شكواه، فلا يجد. وقد استمعتُ إليه، فهل سيكون مني أن أصعرَ خدي له وقد لجأ إليَّ. وهو فوق ذلك شابٌّ نبيلَ الخلق، فلا يسوءنّك منه ما سمعتِ عنه.

رضيت رشا بما سمعت... أسرّها كأنها كانت تتمناه، إنها صادقةٌ في رفضها لوجوده كما أن سرورها بوجوده كان صادقًا أيضًا، لكنَّ تعقيدات نفسها أشدّ من أن تفهمها. قالت: أتدري...؟ إني قلقةٌ من لقاء والدي غداً، ليتني ما أخبرت أحداً عن زيارتنا لعمي.

- أيُّ بأسٍ بذهابكِ إليه؟!

- لا أدري... غداً يتضحُ الأمر

- كان حريًا بك ألا تخبريه.

- أخبرتُ والدتي، وبعد ذلك اتصل أبي، ودعانا إلى العشاء، لكنَّ في صوته ودعوته أمراً ما.

كان الحلبي يريد أن يجدَ سبيلاً يسلكه كيلا يلبيَّ دعوة العشاء في الغد، لكنه خشي إن هو فعل ذلك أن يُحزِنَ زوجته، فلم يشأ أن

يخبرها بكرهه لتلك الزيارة وعلاقتهما قد بدأت بالتعافي الآن، إنها تعلمُ نفورَ زوجها من أبيها وفي كل لازمة تفرض على الحلبي الوجود ولقاءَ حماه كانا يتجادلان بالأمرِ طويلاً، وينتهي الأمرُ بأن ينصاعَ الحلبي لزوجته بعدَ أن يتشاجرا. وهو انصياعٌ للمنطقِ في حقيقته، فليسَ له أن يرفضَ تلكَ الدعوات دون سبب. فكان في لقاءاتهما القليلة هذه يحطُّ كالطائر المهاجر، ثمَّ يطير.

***

مادَ ليلُ رشا وطال تقلبها في فراشها دون أن تُمسك خيط النوم لتحيكَ به السكون، كانت للحظات تحدثُ نفسها بصوتٍ مسموع، تُجهزُ أجوبةً لأبيها إن هو عذلها لزيارةِ عمها وتطرز الأجوبة بعقلها، ثم ترددها، وتهمهمُ بها، يجبرها عقلها على التدربِ على كيفية مواجهته. وقبضتا يديها اللتان تعانقان الوسادة مشدودتين. كان أبوها ذا سطوة يحبه أبناؤه من شدة خوفهم منه، فالخوفُ يرسخُ الحب أحيانًا، لكنه حبٌّ يعرجُ على قدمٍ واحدة.

إنه ليستعجبُ كيف اتفق للحلبي أن يتزوج رشا بالرغم من تفاوت الصفات والحالة المعيشيةِ بين عائلته وعائلتها، لكنه قدرٌ صنعاه معًا. فكان أشدَّ ما يضيقُ به الحلبي بعد زواجه هو هذا التفاوت، وأن تكون لعائلةِ زوجته اليدُ العليا عليه. فتعاهدَ وزوجته أن يعيشا كأنهما وحيدان لا عزاءَ لهما بأهلٍ ولا قريب، وقد كان يشيحُ بوجهه إن استدانت رشا من شقيقتها في بعض الأحيان، أما

أن تستندَ إلى أبيها، فهذا ما كان مرفوضاً عنده حتى أن حماه زياد فهمَ طبعه، فأقصرَ. وكانا كعدوين بينهما هُدنة يبغضُ أحدهما الآخر دون حجةٍ واضحة بغضاً دفيناً يتفرسه النَّاس في وجهيهما، وفي حدَّة الحديثِ بينهما إن حاول طرف أن يتعالى على الآخر، أو أن يفرضَ رأيه عليه. وهذا ما تغير قليلاً مع ولادة رشا لابنتها، فشعرت العائلة أن زياد والد رشا قد بدأ يلين لصهره قليلاً، وينتظرُ قدوم حفيدته إليه كُلَّ أسبوعٍ بفارغ الصبر، لكنه كان يؤثر ألا يُظهِر تلك المودةَ العارضةَ للحلبي، فهو في تردد دائم بين المضي والرجوع.

وهكذا كانت رشا تتوسدُ القلقَ من أن تسوء أبيها زيارتها لعمها، لا زيارتها هي على وجه الخصوص، إنما أن تسوءه إقامةَ علاقة بين زوجها وعمّها، وهذا ما جعلها مرتابةً من أبيها، فبقيت ليلها تعالجُ الأفكارَ وتنتقلُ من همٍّ إلى آخر، ومِن حدثٍ جللٍ إلى آخر تافهٍ، وقد أخذت قصةُ مهند وبثينة شطراً من ليلها، فضحكت بخبثٍ، وعزمت أن تستكشفَ الأمر من صاحبته.

وكذلك كان الحلبي بين يد الليل يصحو ويغفو على تقلبات زوجته في السرير إلى أن خرجَ في الصَّباح متجهاً إلى عمله عند المعلم عبد القاهر، فالسبتُ إجازة من دوامه في التعليم، ولم يشأ أن يعكرَ صفو غفوتها، وقد آست طوال الليل، فارتدى ملابسه بهدوءِ عجوز ومضى.

تبدو السَّماء قاتمة، غيومها الداكنة متشابكةٌ والريحُ تهبُ وتهدأ. كان صباحـًا نكداً بالنسبةِ له، ونفسه تضيقُ عن الانتظار، فلـم ينتظر الحافلةَ لتقله، وراح يمشي مقطبَ الجبين، وكأنَ روحه قد عُلقت بحنجرته. يأسى بأن تشعرَ زوجته بالخوفَ من أحد، ومن أن يكون لأحدٍ الحقُّ بتقييد ما يفعل أو التأثير في مسارِ حياته. أتخافُ أبيها دون سببٍ؟! رثى لحالها ولقلقها الشديد، لـم يتجادل معها، ولـم يخفف عنها؛ لأنه علـم أن أي حديث قد يدور حول هذا الأمر سيكون إيذانـًا ليتشاجرا، لحنقه منها وعليها. إن نبوءةً راودته بنشوبِ نزاعٍ لم يألفه عند لقائه بوالدها مساء اليوم، نبوءةً استقرت بعقله، فظلَّ طوال يومه يرسمُ أخيلةَ الحدث ويرصدُ احتمالاتها. مثلما كانت نبوءةُ مهند الليلةَ الفائتة بأن حالَ أبي سالم سيكون سيئـًا مع تدفق المطرِ طوال الليل. واتفقَ ما تنبأ به الأخير مع الواقع، فهذا أبو سالم منذ بزوغِ الفجرِ وهو يسعى في ساحةِ المنزلِ ليسهلَّ طريقَ خروج الماء العادمةِ منها. قالت أمّ سالم بجزعٍ ويأسٍ شديدين: هل سنبقى على هذا الحال معلقين بأمل فرجٍ سماوي لن يأتي؟ لا بأسَ عليكَ، فأنا من تتجمدُ أطرافي لكثرة التنظيف، وتبكيني الرائحة حين تلطمني بجدران المنزل، وتحشرني في زواياه وأنا أبحثُ عن نسمةٍ صافية أتنفسها، فلا أجد، أما أنت، فإن أصابكَ ضيقٌ من الرائحة خرجتَ من المنزل وأبقى أنا أسيرة الإملاق وفقرك الأبدي للهّمة وإيجادَ الحلول... لا تبقَ واقفـًا

تنتظرْ أن تخلقَ لكَ الأقدارُ مخرجًا. فإن لم تسأم لطول ما انتظرت، فإننا والله قد سئمنا.

إن بثينةَ التي كانت منشغلةً في تنظيف الساحة رفقةِ أمها توقفت عن التنظيف الآن مشدوهةً وهي تسمعُ أمها توجه هذا الكلام لأبيها. لم تعتد أن ترى غضب أمها يُصَب على أبيها كما لم تعهد أم سالم ذلك بنفسها، لكن حبال الكتمان قد أفلتت منها، فكانت جزعةً لحظة بوحها، وكما يجزع الراوي حين تفلتُ من قبضته خيوط حكايته، كذلك كان جزعها وهي ترى أن الكلام أصبح أكبرَ من أن تستطيع ترويضه. فكانت بثينة تنقلُ بصرها بين وجهيهما ترقبُ ردةَ فعل أبيها، وأم سالم مازلت تلطمه بكلامٍ قاسٍ وهو يسمعُ دون أن يلتفتَ إليها. ليس لديه من الكلامِ ما يعينه على تهدئتها وحتى إن أمده لسانه بالكلام، فإنها الآن كغيمةٍ حبست ماءها، ثمَّ تركته لينهمل دفعةً واحدة، فلا مجالَ للإفلاتِ منه وانهماله يكسرُ كل غصن، ويحتُّ كُلَّ صخرٍ. لكنَّ صمته وعدمَ الرد عليها جعل يؤججُ النَّار نفسها من حيث أراد أن يهدئها، فقد حسِبته من صمته أنه لا يبالي لآلامها وسواء أكان عند غضبها أم سكينتها. فزاد صياحها وعلا وكأنَّ نار صدرها قد امتدت وراحت تحرقُ أسفل قدميها، فتراها تقفزُ من زاويةٍ إلى أخرى مثل المجذوبِ في نوبته أو المحروق في حمأته، وهو متمادٍ في صمته يعمل على تنظيف العربة وعقله مشغولٌ بما يسمع. واستقر في باله أخيراً أن صمته لن ينفع، فلفَّ رأسه باتجاهها، فكانت لنظرته أن

أربكتها للحظات، فخفتت حدة صوتها، ثم مشى إليها وساقها أمامه إلى غرفة المعيشة بعيداً عن بثينة. أربكه أن تنال منه أمام ابنته، أو أن يسمعَ سامعٌ صوتهما.

قال بنبرةٍ ثابتة بعد أن أجلسها على الأريكة ومازالت عيناها تنظرُ نحوه بعدوانيةٍ لم يعهدها بهما من قبل:

صبرتِ كل هذا الصبر وتعجزك بضعةُ أيامٍ أخريات!

- إني لأعرفُ أنَّ وعودكَ طويلة، وأنَّ أيامَك شهور وحلولكَ تأتي بعد أن يستنزف الشقاءُ أنفاسنا، فإن كان وأخرجتنا من حفرةٍ، فإننا في وادٍ سحيق من المعاناة.
- الوقتُ كفيلٌ بأن يحلَّ أشدَّ العقد.
- الانتظار وحده يعوزه الجلدُ. فكيف إن اجتمع معه سَقَم الزمان؟!
- خذي من فمِ الزمان هناءَ عيشك وإن كان شحيحًا، فكُلُ حالٍ لا بدَّ أن يتبدل. فلا شقاء يدوم ولا نعمة.
- الربت على قلب ميت لن يعيده إلى الحياة.
- تقومُ البيوت على صبرِ الأمهات. صبرهنَّ ليس لهنَّ وحدهن. فالولدُ على مِنْوال أمه. فأيُ حال ستكون به الديارُ إن كانت الأم جزعة... ؟!. كلنا نمشي إثرَ خطاكِ، وإنكِ لتعلمين علو شأنكِ بيننا. فأنتِ الركن الدافئ الذي يقينا بردَ الأيام. وكم من يومٍ ضقنا بقسوته ذرعًا، فلم نجد مُعينًا عليه غير حنانك الدافق. وكم من صباح كانت الأجواء فيه

ضبابيّة، أشرقَ علينا وطابت طلعته فورَ إشراق وجهكِ البهي.

وإنّك ككلِّ أمٍّ بلغت بأمومتها منزلةً عظيمة، تتفضلُ على أبنائها ببسمات راضية وعينين منيرتين لتضيءَ لهم أشدَّ الليالي اسوداداً، وتغرسُ في نفوسهمُ الرضا حينَ يرون تسليمها لمشيئةِ الله في وقتٍ يكون به كل ماحولها يدفعها نحو السخط. وإنه لفضلٌ لا يردُّ ولا يكافئه فضل مهما بلغ، أن تزرع الأم تلك الخصال بأبنائها، فتكون تلك الخصال عونهم على الدهر. وقد قضيت معك نصف عمري، فلم أرَ منك سخطًا أو نفوراً، فما بالك اليومَ وقد تبدلتِ وتنكرتِ لصفاتكِ حتى حسبتُ أني أرى امرأةً لا أعرفها.

كانت بثينة تختلسُ السمع من خلف الباب لحديث أبويها، خافت أن يبطشَ أبوها بأمها وقد شهدت له بذلك مراتٍ عدة ولأسبابٍ أقلَّ أهمية مما جرى الآن. لكن أبا سالم كان في هذا الوقت أبعدَ ما يكون عن البطش، فإن الشفقة على زوجته قد بلغت عنده كُلَّ مبلغ. فكان في الأشهر الأخيرة قد بدأ يفقدُ أمله بغده، ولا يرتجي من المستقبل راحة المعيشة، بل يتمنى ودون اكتراثٍ إن تحققت أمنيته أم لم تتحقق كان يتمنى ألا يسوءَ حاله أكثر. فحاول أن يكفَّ لسانه عن الوعود بعدَ أن فشل طوال سنوات بالإيفاء بها. لكن بعضَ المواقف كانت تضطره إلى أن يبذلَ وعوداً وهو على علمٍ بأنها وعودٌ فارغة، وما هذا إلّا ليستطيع تجاوزَ الساعةِ التي يمر بها. وزوجته وابنته كانتا على درايةٍ بأن أغلبَ وعوده لهما لن تتحقق، لكنهما في كُل مرةٍ كانتا تقتنعان بكلامه وتصدقانه، وكأنه

يسحرهما بعذوبةِ حديثه ورقته. فكان له بعدَ أن أمسكَ لسانه وأحجم عن تخدير الآلام، وبعد أن اكتفى بهز رأسه لكُلِّ طلبٍ يطلبُ منه والإشاحة بوجهه عن كُل تبرمٍ يسمعه كان له أن روحه تخلصت من قلق السعي والبلوغ، فأمست خفيفة صافية عطوفة. فحين يسمع يحزن ويصمت، وحين يرى يبتسم ساخراً وناقماً ويُطرِق. ومضى أيامه موقناً أن تلك العتمةَ التي أحاطت كل شيء في حياته تحتاجُ إلى معجزة لتزول وقدرة عظيمة لا يمتلكها، وهذا بذاته ما كان يزيدُ من قلقِ زوجته أن تراه فاترَ الهمَّة غيرَ واضحٍ عليه أنه مُبالٍ بغدهم.

بدت أمَّ سالم هادئةً عقبَ استماعها لزوجها. لقد سحرها مرةً أخرى بمعسول كلامه مع تهديدِ عينيه وقد تنفسَ الصعداءَ بعد أن نجح بإرضائها وتهدئتها. سأل نفسه: إلى متى سأنجحُ بإضافة الألوان الزاهية على لوحة أيامها المقيتة... ؟! ما أرعن النساء!! وما أرقَّ قلوبهن!

***

شعرت أم سالم بالرضا بعد أن سمعت ثناء زوجها عليها، وأحسّت إدراكه لقيمتها في المنزل، وما لبث هذا الشعور أن خالطه الندم على ما أفلت من لسانها، فقد جلست تسترجع ذاكرتها وفورةَ الغضبِ التي اعترتها وتُمحِّصُ كل كلمة نبست بها، تقلبها على أوجه عدة وتسأل نفسها: كيف فهمَ ذلك القول؟ وكيف تلقى تلك الكلمة، أكسرته نبرةُ صوتي أم أحرجه أن كان الحديثُ أمام بثينة؟

ليتني ما قلتُ شيئًا، ما غيّرَ الكلامُ شيئًا طوال سنواتٍ حتى يغيرَ اليوم. لا... لعل الصمت المزمن دفعه إلى الكسل وبذرَ بقلبه عدم المبالاة.

مَن يدري!؟

وبقيت لبعض الوقت حبيسةَ الغرفة تستحيي من مغادرتها إلى أن وصل إلى مسامعها صرير باب المنزل، فأيقنت بخروج زوجها، فاستأنفت تنظيفَ الساحة، وبثينة تراقب عبوسها وانشغالها، حاولت أن تكفَّ لسانها عن اللوم، وغصبت نفسها على السكوت؛ كيلا ينشبَ خلافًا آخر بينها وبين أمها، لكنها لم تستطع أن تطوِّع نفسها الناقمةَ وقد رأت أباها عند خروجه وعيناه تقاومانِ الدمع، وللحظةٍ بعد أن انتهت من تنظيف الساحة حجب الغضبُ عقلها، وصاحت وهي تنظرُ مرةً نحو الأرض، ومرةً إلى عينَي أمها: وهل كان ضروريًا كل الذي قلته إلى أبي، إنك ترينَ حاله أم تظنين أنه قادر على إبدال ما نحن فيه، لكنه زاهدٌ بالتغيير. ماذا ستحصلين من هذا كله سوى إيذائه.

على عجلٍ أجابت أم سالم: لا تدافعي عنه، فإنّك لن تفهميه كما أفهمه أنا، وما كنتِ يومًا مهتمةً بأمره أكثرَ مني.

– بلى، إني أفهمه، وعليكِ أن تفهميه بالمثل، إنه ملزمٌ بدفعة أسبوعية لجارنا مهند ليوفي له المال الذي استدانه لأجل مؤونة الفول، وهذه الدفعة زادت الضيقَ علينا. وويلي عليه قريبًا تنتهي مؤونة الفول لدينا، وإنه لم يستطع أن يخبئ ليرةً واحدةً للمؤونة القادمة. وأنت تطالبيه بالإنفاق على المنزل

وعلى الحارةِ أيضاً. لنجد رغيف الخبز وبعدها نلتفتُ إلى دفع الرشاوي وبناء قصور الجنان التي تحلمين بها.

– هذا ما تقولينه الآن، مَن التي كانت تنتحبُ منذ أيامٍ على معيشتها في هذا المنزل. صدقَ من قال: إن على المرء أن يخاف حين يتحدث عن آلامِ غيره من أن يصبح المتألِّم عدوه.

– يا أمي، ليس الأمر كما تفهمينه.

إن أم سالم تجهل أن نحيب ابنتها في تلك الليلة كان رفضاً لرؤية مهندٍ لها صباح ذلك اليوم ومنزلهم تخدق فيه مياه المصرف ورائحته تثير غثيان من يقترب من بابه. فلم تعرف بثينة كيف ستجيبُ أمها، وكيف ستبين لها أن تلك الدموع التي وطأت خدها وطء الحمم للعشب وصدى الأنين الذي كان يتردُ من داخلها كانا ثورةً عفوية لمواساةِ عنفوانها المستباح.

فأعرضت وأنهت الكلام عند هذا الحد.

(10)

القلق الذي أحاطَ برشا الليلة الفائتة وأحرق أعصابها حتى نالها التلف نفذَ إلى نفس زوجها مثل جمرةٍ رُميت في يبيس الأرض، وزاده أنه كان يستمع من المعلم عبد القاهر عن تفاصيل لم يكن يعرفها من شأن أبي سالم وأخيه. وهو صامتٌ لا ينفثُ إلا لهباً، فكان من اجتماع هذا كله أنه أوشكَ على الانفجار. وقد رأت رشا ذلك بوجهه قبيل تلبيتهم لدعوة العشاء، وأخفقت في أن تخفّف عنه ما ألمَّ به.

عاد إلى المنزلِ عند منتصف الليل، كان وحيداً ويا لافتقار اللغة في وصفِ شعورِ إنسان عاجز لا أحدَ جانبه. كانت ليلة البلايا ليلة مليئة بما يبعث الدهشة، والحيرةَ، والصدمة، والوجع، والرأفة، واللوم، والرجاء والعجز.

فالذي جرى أن رشا كانت هي وأمها وأختها التي تكبرها بعامين في المطبخِ مشغولات في تنظيف الآواني وإعداد الشاي بعد أن انتهوا من تناول العشاء وتميم الحلبي وزوج أختها يجلسان في الصالون جوار أبيها. حسبت وهي تحضِّرُ أطباق الفاكهة أن الأمور تجري إلى مستقرٍ جيد. فأبوها استقبلها ببشاشةٍ، ولم تلحظ فيه إعراضاً، وكذلكَ اقتربت إلى أمها وسألتها همساً إن كان والدها قد استاءَ من زيارتها لعمها؟ فعلمت أنه لم يُنكِر الأمرَ حين بلغه. فاستراحت واطمأنت وزالَ عنها كل ما ألمَّ بها طوال اليوم من

حمى التفكير. لكن الغدر ممزوج بتربة الطمأنينة وساعةُ الرَّاحة تزاحمها ساعاتٌ من الشقاء.

كانَ الحديثُ يمضي بسلام بينَ الجدِّ والهزل... وأحيانًا يصمتُ الجميع ليتابعوا لعب الجد مع حفيدته التي لم تفارق حِجرَه دقيقة واحدة. لكن الحلبي الذي كان طوال يومه مشدود الأعصاب يأخذ بأسباب الكره من كل يدٍ ممدودة كان يشعرُ أنه إنسانٌ منافق ويلومُ نفسه على الضحكة بوجه حماه، فترى وجهه يتبدل بين العبوس والبشاشة التي جعل يغصبُ نفسه عليها غصبًا. ولسوء حظِّ رشا وحُسن حظِّ الحلبي أن أباها في مُجمَلِ الحديث وبعد صمتٍ مر به ما يقارب الدقيقة سأله عمَّ جمعه هو وأبو سالم، كيفَ التقيا؟ وكيف تعارفا...؟! أقولُ: لحُسن حظِّ الحلبي؛ لأن حبلاً من الكلمات كان ملفوفًا على رقبته، ومن الذي يعلم أي حالٍ سيئ سيكون عليه إن لم يجد طريقة للتخلص منها. كان يخشى هذا السؤال وينتظره في ذات الوقت، وحين سمعه يلقى عليه أحسَّ أنَّ سكينًا مُدّت إليه لينقذ نفسه ويقطع ذاك الحبل الخانق.

فكانت كلماته الأولى مترددة كطفلٍ خائف، وكأنه يقلب الأمر برأسه ويختبر النبرة التي عليه الحديث بها، أيفقأ الدمّلة؟ أيُعمِلُ بها مشرطه دونَ مخدّر وبغير اكتراثٍ للنتائج؟! سأل نفسه واختار أخيراً، فأصبح كما الأعمى يلقي كلماته دون أن يرى أثرها بوجه

سامعها، وامتدَّ به الوقت حتى أفرغَ غضبَ السنون من صدره وفي لحظاتٍ كانت تعاوده البصيرة، فيرى عظيمَ الأثر في وجه سامعه، فيراوده السرور لما أنجزَ ويعود إلى عماه، ويستزيد في هيجانه دون أن يصغي لأحدٍ ممن حاولوا مقاطعته، أو الردَّ عليه، فكان كلامه كالنهر المندفع وهمُ كالسواقي الكسولة.

ورشا تقف عند باب المطبخ الذي يطلُّ على الصالون، فترى المشهد أمامها كاملاً، ترى هياجَ زوجها وارتجاف يده، تتلقف عيناها اصفرار أبيها وشعيراتٍ حمراوات اتقدنَّ في عينيه والرذاذ المتطاير من فمه في أثناء صراخه وأمها التي تمسك أباها من يده وتهمسُ له بكلامٍ لم يسمعه غيرها.

وزوجُ أختها يقفُ جانب تميم يعذلُ ويصرخُ في وجه الجميع ليكفوا عن فعلتهم اللاتي لا تليق بهم، ولكن دون أن يلتفتَ إليه أحد، فقد كان صوته بالرغم من هياجه صوتاً مسالماً لا يعيره أحدٌ أي اهتمام. فلم تكُن رشا والأمرُ بهذا التعقيد تملك جسارة التقدُّم نحوهم، واكتفت بأن أقبلت إلى ابنتها، فأخذتها وضمتها إلى صدرها، وعادت لتراقبَ المشهدَ من بعيد.

تمدّدَ الحلبي على الكنبة، كان صمتاً عميقاً يملأ المكان، لا همساً يُسمع من الجيران، ولا أصواتاً ضالة تصلُ إليه من الشارع، علمَ من هذا الهدوء المزعجِ أن الليلَ يوشك على الانتهاء، وساعةُ الفجر لا بدَّ أنها ستلوحُ في الأفقِ قريباً. فكلُّ رتابةٍ يتبعها فوضى،

والضجيجُ لا بدَّ أن يلي الهدوء. نظرَ نحو ساعةِ الحائط: الثالثة وخمس وثلاثون دقيقة بعد منتصف الليل وعقرب الثواني يتِكُّ، ولم يكن لصوته أن يزاحمَ هذا الصمتَ المطبقَ لو لم ينظر إليه. فتح عيناه بدهشة حين أدرك أنه قد مشى طويلاً وقطع تلك المسافة سيراً على قدميه. مازالَ قلبه يخفقُ بوتيرةٍ سريعة. أزاحَ الستارة دون أن يتحركَ من مكانه ونظرَ عبر النافذةِ التي كانت جانبه، وأخذ يحدِّثُ نفسه: الحياةَ هي الحياة، كما كانت، وكما ستكونُ دائماً خالية من المنطقِ. الليلُ وإن طالَ سينتهي ظلامه والشتاءُ يدفعه ربيعٌ مزهر. ليتَ بوسع المرءِ أن يعبثَ بنواميس الوجود، وأن يغيّر قواعده الساديّة، فيكونُ الشتاءُ أبديّاً لنعتاد عليه. فما جدوى الربيع إن كان صقيعُ الشتاءِ قد تغلغلَ إلى عظامنا واستوطنها إلى الأبد. ويحسبه الفنانون أصحاب النظرة الواهمة نصراً للحياة وتأكيداً على الولادة من جديد! وما جدوى النصر وألمُ الضحية أبديٌّ لا ينقطع، لن يصلحَ الربيع الغصن الذي كسرته ريح الشتاء. الأمان مهزلةٌ، الأمانُ فخٌ لا نريد نصف الدفءِ أعطونا الصقيع.

ما جدوى الاعتراض؟ وما جدوى الجدل؟ وما نفع الصراخ والتعنّت والرفض والاحتجاج؟ آهٍ! كم نعذبُ أنفسنا وندفعها بأيدينا؛ كي يدهسها القطار. نحنُ مسلوبو الإرادة كالشَّمس تشرقُ كل يومٍ؛ لأنها لا تملكُ خياراً آخر. نحنُ نتاج الآخرين وأدوات عيشهم، لم نحتَرِق يوماً، كُنّا نحنُ دخانَ الحريق يعلو دونَ

التفاتٍ، لم نقطَع شجرةً، كُنّا نحن الثمرةَ المنسية على الغُصن ترقبُ احتضارَ الجذع، ولم نسجُد لوثنٍ، كُنّا نحن صَمتَ المهابة لحظة السجود، ولم نستسلِم، كُنَّا نحنُ الرايةَ البيضاءَ تحملُ إشارَة العجز عن المقاومة، ولم يتسلّل الحُلمُ من بين أصابِعِنا، كُنّا نحن الحلمَ يمشي على قدمٍ وخوف، ولم نستَنِد إلى ظلِّ أحدٍ، كُنّا نحنُ الظّلَ تُشيّعنا العيون بشهوةٍ عند انسلال الشَّمس.

بقيَّ الحلبي يهلوسُ ويتمتمُ وهو ساهمٌ بعينيه نحو السقف، أعجبته هلوساته، فكان كخالقها يراقبها من علوٍ ويبتسم. انتبه أن حلقه جافٌّ كإسفنجة، لكنه أوهنُ من أن يستطيعَ إحضارَ الماء لنفسه، فلم يكترث. نادى على رشا كما ألِفَ دائمًا، وتذكّر بعدَ هنيهةٍ أنه عاد دونها، وأنَّ العشَّ خالٍ من عصفورته، فلن تكون هذه الليلة جانبه. بلع ريقه، فأحسَّ بضيقٍ في حلقه، فخمَّن أن الحمّى ستزوره. إنه بهذه اللحظات زاهدٌ كُلَّ الزهدِ بالحياة غيرَ مُبالٍ بما كان، وبما سيأتي منها، إنَّ هلوساته شطّت حتى بلغت كُلَّ حدب وصوب، وقد آب لوعيه لحظة نهَض وأخذ يصرخ ويضربُ الجدارَ بقوة انسلّت منه فجأةً، فارتمى على الكنبة من جديد. وكذلك كانَ آخرَ ما سمعه قبل أن يتخطفه النوم صوت المؤذّن ينادي لصلاة الفجر من المسجدِ البعيد.

***

حاولت رشا طوال اليوم الاتصال بزوجها عبر الهاتف، فكان منها في البداية بأن استيقظت باكراً قُبيل الجميع؛ كيلا ينتبه إليها أحدٌ من أهلها وعلى وجه الخصوص أباها الذي توعدها إن هي أرت تميم وجهها أو أسمعته صوتها حتى يجدَ لوقاحته مخرجاً، ولكي تلحقَ بزوجها قبل أن يغادرَ المنزل إلى دوامه في المدرسة، لكن الهاتف بقي يرن مراتٍ عدة دون أن يجابَ على رنينه، وكررت الفعلة في الثانية ظهراً وحتى الثالثة ودون إجابة، وفجأة تحولَ رنين الهاتف في السماعة لديها إلى رنين يؤكدُ أن الهاتف الذي تطلبه مُعطَّل، أو هذا ما تبادرَ إلى ذهنها، فقد اعتادوا أن ينقطع خطُّ الهاتفِ مرةً واحدةً كلِّ شهر على الأقل. وفي المساءِ حينَ يئِست من الوصول إليه واستنزفت جهدها في الوقوفِ عندَ سماعة الهاتف، خطرَ لها أن تتصلَ بعمها أبي سالم لتطمئِنَّ إن هو رأى زوجها اليوم، أو إن حدثه بشيءٍ عمَّا في باله، وسرعان ما هاجر هذا الخاطر من ذهنها، فإن التفكير بأن أباها قد يسمعها أو يعلم بطريقة أو بأخرى أنها اتصلت بعمها أقول: إن التفكيرَ وحده بذلك أصابها بالخوف، فمضت وهي تأمل أن تجدَ وسيلةً أخرى للوصول إليه.

وفي ذات الوقت مساءً كان مهند يقف عند باب منزل الحلبي، رنَّ الجرس ولم يكد ينتهي رنينه ذو النغمة الطويلة حتى فُتِحَ الباب كأن الفاتح يقفُ خلفه. وظهر الحلبي بوجه مصفرٍ على جوانبِ

فمه تقرّحات واضحة وشفتاه المطبقتان جافتان وعيناه ذابلتان ترمشان كأنهما أطرافُ ورقتين ينفخ فيهما طفل. إنه يمسكُ رأسه بيده ويشدُّ عليه وبيده الأخرى يتكئُ على الباب، وبمشقةٍ ظاهرة خرجت من فمه كلمةَ (ادخل) قالها وهو يستدير ويمشي مترنحاً فارداً يديه ليوازنَ نفسه، كان شكله صادماً، وملابسه مهلهلة، وكان متعباً بكلّه كأن خسفاً وقعَ داخلَ جسده. تردّد مهند بالدخول، خطا خطوةً إلى الداخل، ثم تراجع وقد لمح الحلبي تراجعه، فأسعفه: ادخل ما من أحدٍّ غيري.

لم ينتقل الحلبي إلى غرفةِ نومه، لم يدخلها منذُ عاد فجر اليوم، بقي معششاً على الكنبة ذاتها يلتفُّ بأغطية عدة، كان قد استلها من صندوق الكنبة ذاتها. جلس مهند وأمامه كان كيس خبزٍ على الطاولة وجانبه صحن زيتون لم يأكل منه سوى خمس زيتوناتٍ. علمَ ذلك من البذور المرمية إلى جانب الصحن، ومن رائحةِ المنزل وأجوائه الكاتمة فهِمَ أن وقتاً قد مضى على صاحبه وهو بهذا الحال وأن هواءً جديداً لم يدخل المنزل منذ حين. وضعَ يده على رأس الحلبي ليستشعرَ حرارته، فوجد أن جبينه يتقدُ كأن أحداً قد فتح جمجمته وملأها جمراً، وفي الآن ذاته كان يلتفُّ بالأغطية، فيظهر كما الوطواط الضام جناحيه إلى بعضهما. كان البردُ يهدُّ قوته ويثقبُ عظامه كمسمار. ومن فوره فتح مهند النافذة قليلاً، فهبّت عليه نسمةٌ استنشقها بكل قوته، وذهب نحو المدفأةِ التي

كانت تتوسط الصالون ليشعلها وهو يسألُ إن كانت فارغةً من الوقود.

كان جليًا أن الجوعَ تخطَّفَ الحلبي دون أن يشعرَ به. الخوف من الجوع يسحرُ الإنسان يسلبه عقله ويخرجه من ثوب الآدمية. ينسلُّ ضميره نسلاً دون أن يدع له مجالاً للفهم، فيدفع بالإنسان أن يدوسَ على معتقداته وثوابته دون أن يرفَّ له جفنٌ. يدفعه أن يخون كُلَّ شيءٍ ليأمن وفاء الجسد له. هذا ما يفعله الخوف من الجوع، فيكيفَ يكون الأمرُ مع الجوع نفسه؟!

وقف مهنَّد في المطبخِ في حين لم تبارحه الحيرةُ، فكان يسهم بعقله بعيداً، ثم يعود ليستذكرَ غايته. فتح باب الثلاجة، فأبصرَ طبق (كواج) سحبه وأداره في مقلاةٍ كانت معلقةً أمامه ليقومَ بتسخينه، ومدَّ يده إلى ليمونةٍ كانت وحيدةً في باب الثلاجة عصرها بيده في كأسٍ، فملأ ثلثه، ثم امتلأ من صنبور المياه، وأضافَ بعضَ الملح وحركه جيداً، كانَ خبيراً في هذه الشؤون طوال خدمته لنفسه. أخذ الطبقَ وعصيرَ الليمون وعاد لصاحبه.

اشتدَّت نار المدفأة، وكسرت بردَ الغرفة والهواءُ قد تجدَّدَ، فأتمَّ مهند غلق النافذة، وأعان صاحبه ليعتدلَ في جلسته وهو يخاطبه: قُم لتأكل.

تناولَ الحلبي بضعَ لقيمات، ثُمَّ عاد ليريح ظهره ويمدَّ ساقيه، ومصادفةً وقعت عيناه على الساعة كانت الحاديةَ عشر مساءً، ولوهلة صُدِمَ حينَ رأى ذلك كان قد مضى عليه ما يقاربُ الثماني

عشر ساعةً وهو في فراشه. أخبرَ مهند بذلك وتابع يقول: لم أقم من الفراش منذ الفجر. لم أستيقظ، بل كنت بين النوم والصحوة، أذكرُ أنَّ برداً شديداً أصابني كان ذلك عند شروق الشَّمس.

وتوقفَ عن الحديث فجأة، ثُمَّ استأنفَ: وأنت ما الذي أتى بك في هذا الوقت؟

ردَّ مهند: حاولتُ الاتصال بك، ولكن الهاتفَ مُعطَّل.

وأشارَ نحو الهاتف الموضوع بشكلٍ مائلٍ على الطاولة الصغيرة بين الكنتبين في زاوية الغرفة، وتابعَ: إن سماعته مرفوعة، أنت من نسيها.

نظرَ الحلبي إليها، ثُمّ أجاب بحروف مقلقلة: سيرميك هذا العالم بالحصى إن أعرضت بوجهكَ عنه ليومٍ واحد. فإن أقبلتَ عليه رجمكَ بالحجارة.

ثُمَّ مدَّ يده وأغلق السماعةَ وهو يتابعُ: رنَّ الهاتف... أذكر أنه رنَّ كثيراً، وليست لي طاقة لأجيبَ عليه، فأبقيتُ السماعةَ مرفوعةً؛ كيلا يرنَّ مجدداً.

- أين زوجتكَ وابنتك؟ وأنت تغالبُ آلامكَ غريبٌ أن تكونَ بمفردك!

رنَّ الهاتفُ من جديد كأنَّ المتصلَ لم يغلبه اليأسُ بالوصولِ، والحلبي كان على درايةٍ أن ما من أحدٍ سيلحُّ بالسؤال عنه سواها. عاجله مهند بعينٍ سائلة: ألا تريدُ الردَّ؟!

أرسل يده إلى السمّاعة وهو يقول: يبدو أنني لستُ بمفردي.

يبدو أن مهند وبعون تلك المكالمة المتأخرةَ التي تجري أمامه الآن استطاع أن يُلِمَّ بحالِ صاحبه، فكان الحلبي يتحدثُ بالهاتف دون أن يتحرّجَ من وجود مهند واستماعه له. إنه ببساطةٍ يتحدثُ كأن لا أحدَ يسمعه. فعلمَ مهند أنّ مشاحنةً حصلت بين الحلبي وحماه، وأنَّ الحلبي حينَ تجرّأَ ونعت حماه بالسارقِ المحتال نال صفعةً على وجهه أخرسته عن الكلام وطُرِدَ من المنزلِ دون أن يُسمح له بأخذ زوجته وابنته معه، طُرد وهو كسيرُ العين حسبَ تعبير الحلبي ذاته. ولم يستطع أن يردَّ شيئًا من كرامته التي سُفِحت، فكان يلزمُ نفسه بأن تقتنعَ أن شرفه لم يُمَس، إذ إنه كان قادراً على ردِّ الصفعةِ بمثلها والإهانةَ بالأكبرِ منها، لكنه أبى إكراماً لزوجته وابنته. وإن تمنُّعَ المرء عن ردِّ الإهانةِ بمثلها كرامةً لمن يعزُّ عليه أن ينالوا نصيباً من تلكَ الإهانة دون أن يكونوا هم المقصودين منها، إن هذا الفعل بذاته فعلٌ نبيلٌ وشاق. بهذا الرأي كان الحلبي يبررُ لزوجته صمته وانصرافه، ويواسي نفسه بأن يزجَّ هذا التعليلَ بوجدانه. لكن نفسه أَبت وبصقت كُلَّ الحجج، فكانَ ومن عظيمِ كمده في حالةٍ لا تنفعُ معها المواساة، ولا يجدي بها التعنيفُ. فإنَّ النفسَ حينَ تُظلَمُ وتُجرَّدُ من العزمِ على الثأر تبدأُ بالتهامِ ذاتها حتى تفنى.

بدأ الحديثُ بينهما باللومِ والعذلِ، وانتهى بالشفقةِ والتمني، إنَّ صوته المخنوقَ الفاقد كل قدرة أصاب رشا بالوهن. وإنه لمن المفارقات العجيبةِ أن صوتاً مريضاً فاقداً للقدرة يصيبُ المستمعَ

الأشدَّ والأصحَ بالوهن والعجز. وكذلكَ رشا كانت ترجو أن تُحصِّلَ إجابةً عمّا سيفعله زوجها لحلِّ العقدةِ التي عقدتها رعونته أصبحت تأملُ أن يعودَ العزم لصوته وأن يلتئمَ كسره، فهو الذي حاولَ في البدء أن يتصنعَ السلامةَ خانتهُ صحته بعدَ دقائق من الحديثِ والانفعال، فصارَ صوته يرتجفُ كبقيةِ جسده، وانتهت المكالمةُ، ولم تحصِّل رشا سوى الشفقةِ والحزن الذي امتدَّ في خاطرها، فلا يُعلمُ آخره. والحلبي عاودته الحمّى وعيناه رُسم فيهما موج من الدمع واختلطَ عليه إن كان السبب مرضه وسخونته أم الكمدُ أم أن الأمرين اجتمعا في عينيه.

انسحل على الكنبةِ وبكفيه المرتجفين الناشفين أخذَ يشدُّ من الدثار على جسده، فعاجله مهند بدواءٍ كان قد عثرَ عليه في علبةٍ بلاستيكية دلَّ عليها الحلبي. أحكمَ الغطاءَ على وجهه، دفنَ رأسه به، إن روحه تصطكُّ وتتخبطُ في جسده راجيةً المزيدَ من الوحدةِ. أعطِ روحكَ الوحدةَ، احبسها عن الآخرين، وستبرأ مما أصابك. بذلكَ كان يخاطبُ نفسه في كُلِّ وقت. فهمَ مهند ذلك، لم يحادثه بشيءٍ، تركه ومضى.

(11)

يُشعلُ شمعةً، ثُمَّ ينفخُ عليها، ومراتٍ يطفئها بإصبعيه السبابة والإبهام، أو يغرقُ فتيلها بالشمع المذاب فتنطفئ. كانت بقية شمعةٍ أوقدها ليلةَ البارحة عندما انقطعَ التيار الكهربائي، إنه على هذه الحال منذُ وقتٍ غير قصير وشقيقه أحمد ينظرُ إليه ويتابعُ حركاته بصمتٍ والمتجر هادئ، وكذلك الشارعُ به حركةُ أناسٍ قليلة يمضون مسرعينَ كلٌّ إلى غايته، والغايات في هذه المدينة كثيرة، لكنها وعلى كثرتها لا تتفقُ فيها غايتان. همُّ العيشِ ليسَ من الغايات، إنه همٌّ أزليٌّ يرثه الابن عن أبيه وهو دونَ عناءٍ يعرفُ طريقه إلى جميعِ الوارثين.

عاودَ أحمد عمله في الدكان من اليوم الذي تلا اجتماعه وإخوته لطردِ مهند من المنزل، إنه وحين أدركَ أن خطته كانت متسرعةً وتحملُ من السذاجةِ والحمقِ قدرَ ما تحمله من الخبثِ تراجعَ عنها، ولزمَ جانبَ الأمان، وراحَ يحاولُ أن يعيدَ الماءَ إلى مجراها الذي اعتادته. ليبقى الحال على ما هو عليه. وقد أسدى له صهره القاسم نصيحةً بذلك، فبعدَ أن غادرَ الجميعُ عشية، اجتمعوا، وكان اقتراحُ الحلبي أن يتم تقسيم الميراثِ بينهم، انفردَ القاسم بأحمد وأجزلَ في توبيخه على الضرر الذي سيُلحِقه بنفسه إن هو استمرَّ في مسعاه بطردِ مهند، فلو أنَّ إخوته أتمّوا عزمهمُ على تقسيمِ الميراثِ، لكان هو أولُ المتضررين، ونصحه بأن يصمتَ عن الأمرِ

ما استطاع ويحاول مداراة إخوته لثنيهم عن القسمة. ففعلَ أحمد ولزم جانب الصمت. وأعجبَ مهند أن أخاه قد صمتَ عمّا فاتَ وعادَ إلى الدكان وهو يتودَّد بحذر ومكابرة. فتجاوزَ مهند الأمر، ولم يَعُد يأتي على ذكره. إنَّ باله منتزعٌ منه في هذه الأيام، ومرميٌّ بينَ يديها. بثينةُ التي خطت نحوه أكثرَ مما خطا إليها. فهيَ لم تماطِل بالأمر بعدَ أن راوغته في الدكان منذُ أيام، بل عادت إليه في اليوم التالي، وتحدثا بكلامٍ قليل. لكنَّ ذلكَ التحفُّظَ الذي كان يربطُ لسانيهما ساعة الوصل والتقاء المُقل قد تلاشى حينَ تحدثا عبر الهاتف، فاسترسلا وأطالا في حديثهما. إنّه لَم يَكُن ليراوغَ معها وهي ابنةُ صديقه، فهذا وحسبَ مبدئه أمرٌ مخزٍ لم يكن ليقبله على نفسه كما لم تكن لتقبله الفتاةُ على نفسها، فمضى به عقله سريعًا إلى الزواج. فكانت فضيحته في الحي أولَ دافعٍ له، وذلكَ ليكفَّ الألسنَّ عن نفسه. وها هو في مستقرٍ من أمره بعد أن لاحظَ من أخيه أحمد أنه في اضطراب من تقسيمِ الميراث، وأرادَ أن يستأمن من ظنونه في هذا الشأنِ، فسألَ أحمد وهو على حالته يعبثُ بالشمعةِ التي أمامه: ما رأيك؟ أريدُ طلاءَ الغرفتين في المنزلِ وتجديدَ المطبخ.

نظرَ أحمد... إنهُ قد فهمَ المغزى من السؤال، فهمَ أنَّ مهند يريدُ أن يتبين طريقه ويعرفَ ما استقرَ به الرأيُ بخصوصِ الميراث. كان السؤالُ مريحًا لأحمد وقد أزالَ توجساته وطمئنَ مخاوفه. فأجابَ

بعدَ أن أشعلَ سيجارته: إنّ الوقتَ مناسبٌ الآن، مناسبٌ جداً لما تريدُ فعله... لكن ما هذا التجديدُ الذي خطرَ لك فجأةً؟ أنويتَ الزواج أخيراً؟!

– هو هذا... أفكرُ بالأمرِ، لكنني أجهلُ من أين أبدأ.

– ليكُن إذاً... إنّ لدى زوجتي قريبة كانت قد حدَّثتني عنها لخطبتها لك، فإنها تفكِّرُ بكَ وتهتمُّ لشأنِكَ كما تهتمُّ المرأةُ بأخيها. فإن شئتَ أذنتُ لها لترتبَ للأمر.

– لا لا... هناكَ فتاةٌ أريدُ خطبتها.

وقفَ أحمد حين سمع تلك الإجابة استرجعَ عقله صورة المرأة التي وجدها في المنزل رفقة مهند، فأشارَ بإصبعه باتجاه غير معلوم، وقال: أتقصِد... ؟ وصمت.

أجابَ مهند وقد افترَّ ثغره عن ابتسامة: أتهزأ بي؟ بالطبع ليست هي.

– لي عندك رجاءٌ بألا تأتي إلينا بمصيبةٍ جديدة، وكُلُّ شيءٍ عندها هيّن.

قاطعه مهند بلسانٍ مترددٍ: أريدُ مصاهرةَ أبي سالم.

كانت هذه فرصةً لأحمد ليثبَت نفسه، ويطوي صفحة تقاسم الميراث التي فتحها بيده، ويسيطر على الأمرِ من جوانبه كافة، فإنه لو سعى إلى الأمرِ على أطرافه الأربعة، لما استطاع أن يصل إليه كما هو بهذا الشكل أمامه الآن. إنه يتظاهر بالفرحِ بشكلٍ يبعثُ

للسخرية وعدمَ التصديق. فقامَ يذهبُ ويجيءُ بالمساحةِ الصغيرة التي أمامه مطرقـًا بالأرضِ وهو يبتسمُ، رفعَ رأسه وقالَ: اليومَ سأتحدَّثُ مع شقيقتك لتأتينا في الغد وتذهب مع زوجتي وزوجة أخيك إلى دارِ أبي سالم، نعم... يجبُ على النسوةِ أن يذهبن أولاً ليرين الفتاة. كُلُّ شيءٍ يجبُ أن يمشي حسبَ الأصول.

تابعَ سيره، ثُمَّ توقفَّ فجأةً، واستأنف كلامه: وبعدَ ذلكَ يأتي دورُ الرجال، وسيكونُ الأمرُ كما تُحبُ وترضى. وبالطبع لن يرفضَ أبو سالمٍ عريسًا مثلك. هذا أمرٌ مستبعدٌ، فإياكَ أن تتوجسَ من الرفضَ إن كنتَ تهوى الفتاة، فستكون لك. ولكن أنت تهوى الفتاة... ؟ ما كان اسمها... أم أنّكَ رأيتها فأعجبتكَ فقط؟ هل حدّثتها بشيء؟!

لم يدع أحمد مجالاً لمهند ليجيبَ عن شيء... كان يسألُ ولا ينتظِرُ الإجابةَ، إنه يشعرُ بالضآلة، ويجاهد لاستكبارِ نفسه المهزوزة.

تابعَ: اليوم سأرى أبا سالم، وأخبره بزيارةِ النساءِ في الغد، سيسعده ذلك أنا أعلمُ أن أبا سالم يضمرُ لك المحبةَ. وعليكَ أن تؤجِّلَ أمر صيانةِ المنزل لما بعد الخطوبةِ، فإنّك مقدِمٌ على الخطوبة، وستحتاجُ إلى كُلِّ ليرةٍ تملكها. قد وفرت مهركَ على ما أعتقِد... أليس كذلك؟ لا بأسَ لا بأس... حتى وإن نَقِصَ عليك شيءٌ، فإنني موجودٌ، والأخُ يسدُّ حاجةَ أخيه. ستسيرُ الأمور كما

تشتهي. ما الذي يريده الأخُ لأخيه سوى أن ينعمَ بالاستقرارِ، وينالَ عيشةً هادئةً شريفة؟! إني لفخورٌ بك وقد عادَ إليك عقلكَ واخترتَ أن تمضي بحياتكِ كما يمضي الرجال. حسنًا، دَع كل الترتيبات لي، سأهتمُّ أنا بالأمرِ من أوله إلى آخره، وعليك أنت السمع والقبول.

حرق مهندٌ إصبعته في نارِ الشمعة التي كان يلاعبها وهو منشغلٌ بكلامِ أخيه وتحوله المفاجئ وبتلكَ الطاقة الفتيّة التي سيطرت عليه، فجعلته يقفز في الأرجاء مثل هرٍّ يلاعبُ كرة. قالَ بنفسه: ذاكَ الغرابُ كيفَ أصبحَ عصفوراً؟ إنني إن أردت البحث عن صفةٍ واحدة تلازمُ كُلَّ إنسانٍ من الولادة حتى الموت، لوجدتُ التناقضَ. ياه لهذه الصفةِ وقدرتها على قذفك في عاصفةٍ من الحيرةِ والوهم!! أصادقٌ هو في محبته؟ أصافيةٌ سريرته أم أن للكراهيةِ وجهٌ بشوشٌ في بعض الأحيان؟! لم يبالِ لأفكاره هذه، بل هزَّ رأسه مسروراً بأنَّ الأمرَ سيتمُّ بسرعةٍ لم يتوقعها ودونَ تخطيطٍ له.

استمرَّ أحمد في حركته النشطةَ التي في هذه اللحظة سرّبت إلى نفسه إحساساً بالفضيحة والسُّخف، رأى نفسه عارياً بعيني أخيه الذي كان ينظرُ إليه مشدوهاً ويجيبه بكلماتٍ مقتضبة، فأيقن أنّ سعادته المفتعلة والطارئة تَظهَرُ بشكلٍ مبالغ فيه، فراحَ يجتهدُ؛ كيلا تتغيرَ ملامح وجهه وقالَ وهو يحاولُ الانسحابِ من تحت سلطةِ تلكَ العينين: لي حاجةٌ في المنزلِ سأقضيها وأعود. وخرجَ.

أشعل مهند فتيلَ الشمعةِ، مرَّ على ذهنه بعض وجوه الحي التي أمست تتحاشى الاقترابَ منه بعدَ فضيحته، كانَ خاطراً سريعًا أخلفَ مرارةً ومضى، عاودته صورةُ بثينة، فاستحالَت المرارةُ بخاطره حلاوةً. وهو كذلك يبتسمُ لخيال مرَّ به، رنَّ الهاتف، فكانَ أبو سالم الذي فاجأه بالاتصال، وطلب منه أن يواتيه في ورشة المعلم عبد القاهر الآن إن كان بوسعه ألّا يتأخر عليه. وحسبَ المتوقعِ أجابه مهند أنه لن يطيلَ حتى يصل.

كانَ مهند يعرفُ عبدَ القاهر، وتربطهما معرفةٌ قديمة منذ عهد أبيه المتوفى. وعلى عجلٍ اتصلَ مهند بأخيه، وتدبّرَ أمرَ الدكان. وفي الساعةِ التي تسبقُ الغروب مشى بخطا أوصلته بلمحِ البصر إلى مقصده ليجد عند باب الورشةِ المعلم عبد القاهرِ رفقة أبي سالم يقفان جانبِ سيارة الفولكس فاكن الزيتية اللون وعاجله عبد القاهر وهو يفتحُ باب سيارته: وصلتَ سريعًا... هل أتيتَ راكضًا؟!

أخذ مهند نفسًا وهو يصافحُ أبا سالم ويحيّي عبد القاهر من الطرف الآخر للسيارةِ. وتابعَ أبو سالم: أتينا بك لترشدنا إلى منزلِ الحلبي وتذهب رفقتنا.

***

في صبيحة هذا اليوم قصَّ مهند قصة الحلبي لأبي سالم، وأخبره عن الحمى الشديدة التي أصابته، لكنه تحفَّظَ عن الحديث

عمّا فهمه من خلافِ الحلبي وحماه، واكتفى بأن أوضحَ أن خلافاً قد حصل، وأنَّ الحلبي يجلسُ وحيداً في منزله بعد أن بقيت زوجته في منزل أهلها. حينَ وصل هذا الخبر إلى أبي سالم خمّنَ السببَ، وأحاطت به الظنون، وقد شاهدَ تلكُؤ مهند بالكلام. فقام بزيارة ورشة عبد القاهر على أملٍ أن يجدَ تميم الحلبي وقد عادَ إلى دوامه. وحينَ لم يجده باح بما في خاطره من ظنون لصاحبه عبد القاهر، فاتفقا على زيارة الحلبي ليستفهما منه إن كان بوسعهما مساعدته لحلِّ النزاع. لكنهما كي لا يضعا مهنداً بزاويةٍ حرجة لإفشائه ما سمعَ من صاحبه، وقد ألحَّ مهند عليهما في هذا الشأن. اتفقوا بأن تكونَ زيارتهم للاطمئنانِ على صحته فقط، وإذا استطاعوا سحبَ الكلامِ من الحلبي ودفعه لأخبارهم بمشكلته دون أن يبيّنوا له معرفتهم المسبقة بها تمكنوا حينها من التدخُلِ. فأبو سالم قد راوده ذلكَ الظن بأن يكونَ هو سبب المشكلةِ قد اتخذَ على عاتقه مسؤوليةَ أن يساعدَ بحلِّها وهو يتمنى بأن يكون ظنه مخطئًا.

وكذلكَ حينَ وصلوا بيت الحلبي وجدوا أعراض الحمى قد زالت عنه، ولم يبقَ منها إلا بعض آثارها التي بقيت واضحةً على جسده وعينيه تحديداً. عيناه اللتان أحاطتهما هالةٌ سوداء امتدت إلى منتصفِ وجهه المُصفر، فما زال يشكو من من صداعٍ متقطعٍ، فتراه يمدُّ يده إلى المسكناتِ بشكلٍ مستمر، وحين لاحظَ بضيوفه

الكلامَ الذي يخفي تحته كلاماً آخرَ أشارَ إلى مهند بعينيه مستفهماً دونَ أن يلحظَ الآخرونَ ذلكَ. ففهمَ من مهند بإشارةٍ خاطفة على فمه قام بها أنه لم يتحدث بشيءٍ مما سمعَ. فاستراحَ لما فهم.

وهُم داروا حولَ موضعِ السَّقمِ، استفزوا تقرحاته، وتشابه عليهم، فلم يفقهوا شيئاً. فالحلبي الذي شكَّ أنهمُ على علمٍ بالأمر حينَ سأله أبو سالمٍ عن زوجته وابنته أطبقَ لسانه، وراحَ يدخُلُ في أحاديث تبعدهُمُ عما أرادوا كلما اقتربوا. ورجعوا دون أجوبةٍ، وحده السؤال الذي بقي معهم. وعند باب الورشة أخذَ أبو سالم عربة الفول، وراح يدفعها أمامه وجانبه يسير مهند بصمت. وحينَ وصل أبو سالم إلى بيته، وبعد أن استوقفه أحمد عند الدكان وألح عليه ليشرب معه الشاي، وأخبره خلال ذلك بنيتهم إرسال النساءِ لرؤية ابنته، وكُلَّ ما إلى ذلكَ من تفاصيلٍ... ومهند يستمعُ للحديثِ بتوجسٍ وقلقٍ باديين ما برحا أن خفّت حدتهما بعد قبولَ أبي سالم للزيارة. أقولُ: حين عادَ إلى المنزلِ دخل حجرته من فوره، وطلب من زوجته أن تلحقَ به، فمضت خلفه وعليها ملامح عجبٍ من حالته، وقد أوصد الباب خلفه. فكان أول ما نطقت به وهو يقصُّ عليها طلبَ أحمد أن أجابته بحميّةٍ: وهل سترضخُ له وتقبل بإعطاء ابنتكَ إلى مهند؛ لأنكَ مستدينٌ منه وتخجلُ من رده خائباً!؟ غداً أجمع له ماله، وليذهبَ كُلٌّ في شأنه، استدن من غيره، تدبر الأمر، وليكن ما يُكن. ما الذي سيقوله النَّاس علينا؟ إنه من

أسوأ النَّاس سمعةً في الحي وتقبلهُ صهراً لك!! أيقولون: إننا ضقنا بابنتنا، فأعطيناها لأول طالبٍ لها.

- إنّكِ يا امرأة تتعنتينَ ولا تفكرين بكلامكِ قبل نطقه. ما الذي أصابَ رأسكِ حتى نفرتِ من الأمر على هذه الشاكلة؟

احتدَّ الصراع بين أبي سالمٍ وزوجته بعد أن أتت على ذكرِ الدَّينِ الذي عليه لمهند، فإنها ومن حيث لم تقصِد أصابته في كرامته، فشعرَ كأنَّ ابنته سلعة سيقايضها بدينه، فحاولَ أن يشدَّ الرباطَ على لسانه؛ كيلا يعنِّف زوجته جزاءً بما أتت من قول، وبقي صراعهما محتداً بعيداً عن عين بثينة التي كانت تسمعُ بعضَ الكلمات من خارجِ الغرفة، ومن هذه الكلمات المتشعبة الفالتة من الحديث نجحت بأن تُكَوِّنَ شكلاً للأمر الذي عليه الخلاف. فتغيّرَ إيقاعُ نبضها لمّا فهمت الأمر. وفي ذلكَ الحين كانت أمُّ سالمٍ قد بدأت في البكاء، فاختلطت المعاني على بثينة، إلا أنَّ الأمرَ قد حُسِمَ وحينَ خرجَ أبو سالمٍ من الغرفة وجد بثينةَ متسمّرة عند البابِ المجاور، وقد خُطِفَ لونها، فاستدعاها إليه وهو يقولُ برفق ويمسحُ بكفه على جانبِ رأسها ويداعب بأصابعه جديلتها المرميةَ على كتفها: غداً ستأتي النسوةُ لرؤيتكِ وخطبتك لجارنا مهند، فإن أعجبكِ الأمر ورضيتِ به مضينا فيه إلى آخره. ولا يعبثنَّ بعقلكِ حديثُ والدتكِ وتكهناتها اللاتي ليس لها أساس، فالقبولُ أو الرفضُ

مرهونٌ برأيكِ يا ابنتي، والشابُ كُلنا نعرفه، فإن سَمعت عنه شيئًا، فما ذاك إلا من جَشعِ النَّاس وافتقارهم للمروءة، ثُمَّ تابع وهو ينظرُ بعينَي أمَّ سالم: لو أخطأ المرء مرةً في حياته، لبقي هذا الخطأ لعنةً تلاحقه طوال العمر. النَّاس لا تملكُ القدرةَ على المغفرةِ. لكن يجبُ علينا أن نملكها، وأن نغفرَ ما استطعنا، فبقاءُ الود مرهونٌ بقدرتنا على المغفرة.

تملكت بثينة الدهشةَ، فما كان لها أن تحسبَ ولو من شذرات الخيال أن الأمرَ سيأخذُ هذا المنحنى، وبهذه السرعة، فكانت الصدمةُ والدهشةُ العنيفة جليّتان عليها، وقد أعقدتا لسانها، فلم تقدر على القول، واكتفت بهزِّ رأسها باسمةً وعيناها تتجنبُ النظرَ إلى والدتها. وانسلّت إلى فراشها في الغرفة المجاورة، حيثُ كانت الأضواءُ مُطفأةً، تحاولُ أن تستوعبَ الأمر بعيداً عن أبويها.

***

وبعد أن تناول أبو سالم عشاءه وحظي بحمامٍ ساخنٍ كان قد خطّطَ له منذ يومين، تمدّد في فراشه يعلوه لحافٌ به مزيجٌ من درجات اللون البني، بين فاتحه وغامقه، وأسند يده على رأسه وهو ينظرُ نحو السقف وأنفاسه تصطدمُ باللحافِ، وتعودُ إليه دافئةً نديّة، فكان في تلك الدقائق يتحدُ مع السكينة، يتداخلُ بها كتداخُلِ مزيجين من جنس واحد، وإرهاقُ النهار ينسل من فقرات ظهره ومفاصل قدميه، وعقله يصفو على مهلٍ مثل ماء عكرةٍ تُلملمُ

شوائبها أسفلَ الإناء وحده أمرُ الدَّين لمهند الذي بقي طافيـًا في عقله وأم سالم تجلسُ على الأريكةِ قبالةَ السرير تمسكُ مسبحةً، وتُتمتمُ بصوتٍ خفيضٍ: سبحانَ الله!!

سألته وقد أفلتت من شركِ الغضبِ: أين ذهبَ بك تفكيرك؟

أمال وجهه نحوها، رآها وقد هدأت، فتناسيا ما بدر منها أول الليل، هو يعلمُ أنّ عشرتهما طالت إلى هذا الوقت؛ لأنهما اعتادا النسيان. قال: أفكر بمهند... لم يكُن باديـًا عليه بوقتٍ من الأوقات أنه ينحو نحو مصاهرتي. طوال هذا الوقت ولم ألحظ إمارةً تفضحُ تلكَ النيّة، وهذا زواجٌ وليست فكرة تطرأ على بال المرء في ليلةٍ قمراءَ ليصبحَ ويهمَّ بها. وإبانَ صمتٍ قصير بلع فيه نصف الكلام استأنف: كُلُّ شيءٍ ممكن.

فتحَ هذا الكلام طريقـًا لأم سالم لتكمل ما بدأت به أول الليلِ، ولكن بأسلوبٍ مختلف، فقالت: ها أنتَ تقولها لو أنّ لدى مهند جدّية الإقدام لمصاهرتنا، لتعفّفَ وما تسبّب لنفسه بفضيحةٍ أمامنا ونحنُ جيرانه وأقربُ النَّاس إليه، ومن العجبِ أن نكون أدرى النَّاس بفضيحته، ثُمَّ يطرقُ بابنا للمصاهرة، ألا يستحيي من نفسه؟!

أجاب أبو سالم: ربما كان واثقـًا بأننا نعرفُ فيه النقاءَ بالرغم مما فيه من أمورٍ يعيبها النَّاس عليه. وهو لم يكترث يومـًا لآراءِ النَّاس بأعماله ذلكَ؛ لأنه لا يحاكم أعماله ذاتها، بل يحاكمُ دوافعها في نفسه وأضرارها على غيره وعلى هذا الاعتقادِ كان يرى الخطأ

بالآخرين وليس بنفسه... وقد أكونُ وحدي من يرى فيه ذلك لطولِ عشرتنا ومعرفتي لتفاصيلِ حياته، فهو واثقٌ بهذه المعرفة الحقيقية، وأحسبُ أنّه قد آب إلى رشده، فعلى أي حال ما جرى منه مؤخراً قد كان سقطة منه، ولن تُعاد، وحبذا أن تقطعي ذكرها أمام بثينة وأمام الجميعِ، فإني أرجو أن تتمَّ هذه الخطوبة؛ لأني أعده بمثابةِ ولدٍ لي وهو كذلك يعدني بمثابةِ أبيه، فلا يخفى عليك حين اجتمع عليه أهله لنبذه لمن لجأ.

حافظت أم سالم على هيئتها التعبديّة وعقلها يغزلُ أفكاراً بأماكن أخرى في حينِ بقي زوجها مسترسلاً في كلامه ولو سألها عمّا قال لما عرفت أن تجبه... ثُمَّ قاطعته وهي تسحب من يدها سواراً من الذهب كانَ آخرَ قطعةٍ بقيت لديها من ذهبها، فقد باعت عقدها حينَ دُهِسَ أبو سالم منذ سنواتٍ وكُسِرَ وركه، وبقي شهوراً عدة في الفراش، واستغنت عن خاتمِ زواجها لحاجةٍ لها من الأهميّةِ أنها نسيتها... فكانت في مراتٍ عدةٍ تحاولُ أن تستذكرَ سبب بيعه فتفشل. وبقي هذا السوارُ وحيداً في يدها آخر الأمرِ، وألزمها زوجها أن تبقيه في ساعدها حتى يراه دائماً؛ كيلا تغافله وتبيعه لتقضي حاجةً من حوائج عيشهم. مدّت السوارَ إلى أبي سالم، فنظرَ إليها بطرف عينه وهو مستقرٌ في فراشه، فعاجلته قائلةً: إن كان لا بدَّ من الحديث عن خطبةِ بثينة لمهند، فقبل ذلكَ عليكَ أن تسدد دينك له، وحينها افعل ما شئتَ، فإن قبلت به خطيباً

لابنتنا، فلكَ الأمرُ دون حرج، وإن رفضته، فأنت صاحبُ الرأي، ولا تجعلنّه يدخل بيتنا وله ولو بعينِ نفسه مقدار تفضُّلٍ عليك أو رفعة عن ابنتنا.

التفَّ أبو سالم بجسده إلى الطرف الآخر دون أن يجبها ولو بكلمةٍ واحدة شدَّ اللحافَ إلى وجهه، واختفى كأنَّ ظلمةَ الكلام ابتلعته، فما أبقت منه سوى صوت أنفاسٍ واهنة.

(12)

لدى النسوة إحساسٌ قادرٌ على استنباطِ الكلمات حتى من خلجات العيون ونسَقِ الأنفاس، إنهنَّ وبطريقةٍ ما يستطعن فهمَ كُلِّ المسكوتِ عنه وخصيصاً ما يحاول الرجلُ إخفاءه. إنّ تلك القدرة وحتى في أكثر المجتمعات نزعةً لترويضِ المرأةِ هي التي ساعدت المرأة في الدخولِ لأشدِّ الأماكن خصوصيةً لدى الرجل وتطويعه من حيث لا يدري وتحديد اختياراته، ودفعه نحو السُّبل وهو موقنٌ أنَّ أمره بيده، وتتغذى أناه وتنمو على فهمه الواهم لسيطرته وتفرده. وكذلك كانت رشا متميزة بفهمِ ما لم يُقَلْ، وقد أدركت أن انفعال أبيها لم يكُن من زوجها بشكلٍ حتمي منقطع، بل إنه يضيقُ بنزاعِ خطئه القديم مع نفسه. إنّه يعاني انقساماً في ذاته، ويتقلبُ بين أفكار تدفعه لإصلاحِ ما طوت عليه السنين وأفكارٍ أخرى تفزعه، فهو يخشى أن ينبعثَ عار الحدثِ بعدَ أن استكان في الصدور، وسكت عنه النَّاس. يخشى كُلَّ صوتٍ قد يجذب الأنظارَ نحو مساوئه. فكانت صفعته للحلبي إسكاتاً للصوت الصارخِ داخلَ صدره. وانتقاماً من كُلِّ خزي أحسّه بيومٍ من الأيام. هذا ما كان يعتملُ بنفسه دون أن يعلمَ. فكُلُّ ما كان يعلمه أنه صفع الحلبي لتجاوزه حدودَ الأدب. لكنّ رشا من النساء، والنساءُ يعلمن كُلَّ شيء.

إنّها وحينَ فهمت هذا خلال تسعة أيام قضتها وهي محجوبة عن بيتها، وفي مواجهةٍ مع أبيها وصدٍّ ورد وجدت أن من المقدورِ عليه الإحاطةَ بغضبِ أبيها وإخماده. بل جعله راضياً مطمئناً، ذلك إن هي استطاعت دفعَ الشبهات المتخيلةَ عنه وإبعاد العارِ المجتمعي الذي يقفُ كشبحٍ يهدده من بعيد. أو إحضار تلك المخاوف لتتصادمَ معه، فيذعنَ إليها ويُسلِّم. فكان منها أن استأذنت أمها بمغادرةِ المنزلِ لوقتٍ غير طويل، والعودة إليه قبل عودة أبيها، ونجحت بإقناعها بعد لأيٍ، والمقصدُ بيت عمّها أبي سالم، إنها ترجو بأن ترمي أباها بعمها، فقد يكون العقارُ من أصل السمِّ أحياناً. وما من سبيلٍ لإقناعه بالتدخُل حسبما اعتقدت إن هي طالبته بذلك عبرَ الهاتفِ، فتعابيرُ الوجوه أبلغُ من الكلام، وقد تقومُ العيون محلَّ اللسان حينَ تعجزُ اللغة عن إيضاح خبايا النفسِ. فزوجها قد تقوقعَ على نفسه، وقلَّ كلامه في المرات القليلة التي استطاعت فيها التواصلَ معه، إنها لم تحصل منه على وعدٍ أو ميعادٍ لحلِّ عقدتهما. وكذلكَ مضت في الأمرِ دونَ إعلامه، ولم تَكُن لتعلم طوال هذه الأيام أن أبا سالم كان يحاولُ كسر قشورِ الأمر والوصول إلى لبّه دون أن ينجحَ بذلك. فمازالَ الحلبي كما هو معها متحفظاً حتى اتجاه الآخرين.

لَم يكن قدوم رشا على عمّها مفاجئاً له، فحين رآها داخلةً عليه خمّن من فوره سبب مجيئها، كانت قد تحرّت ساعةَ عودته من

ابنته عبر مكالمة قصيرةٍ جمعتهما، فأَخبرت بثينة أنها ستأتي إليهم لرؤيته، وواتت ساعة قدومها ساعة عودته من عمله. استمع إليها وهو محدقٌ في وجهها دون أي حراك، وهي تروي له ما حدث بتفصيلٍ دقيق وتشدِّد على الجُمَل اللاتي من الممكن أن تثير شفقته، إنها بخبثٍ تجعله يشعرُ بذنب كُلّ ما أصابها دون أن تقول ذلك مصارحةً، وحين انتهت من سردها أضافت بهيئة الرجاء: قد يكون الحلُّ عندك، لن يصغي أبي أو تميم لأحدٍ سواك، لقد سفحَ كُلٌّ منهما كرامة الآخر، وحين تُستباح كرامة المرء على أعين النَّاس يصبح كمن أصابه السعار، يغشى على عقله، فلا يحفظُ شأنًا لقريبٍ أو بعيد، وحدك أنت ستكون الاستثناء لهما، سيستمعان إليك، ويقدران قدومك.

ومضت بعد ذلك وقد أحسّت بجنوح عمها لكلامها، فلم تسأله عن رأيه، لقد استحثّت عطفه، وهذا يكفيها.

طوال تلك السنوات حاول أن ينسى، أن يسلخَ جلده، وأن يكون إنسانًا آخراً بقلبٍ خالٍ وذاكرةٍ بيضاء، لكن حين ترسمُ الأيام مسار حياة إنسانٍ ما، تُعمِلُ في قيعان وجدانه السكاكين والأزاميل، فتقطعُ منه أجزاءً وتهدمُ أخرى، فكل حدثٍ يمر به المرءُ في حياته يخلف أثراً لا يزول، وعلى المرءِ أن يفنى لتفنى تلك الندبات، ولتتهدمَّ صروح الأفراح المكتملة والتي لم تشهد الكمال. ولأن الفناء في الحياة أشدُّ من الفناء في الموت، فقلائل هم

من استطاعوا أن ينالوه قبل مماتهم، ذلك أن عليهم أن يمضوا دون التفاتٍ للصروح التي هدموها في أنفسهم، فالالتفاتُ سحرٌ بابلي يعيد إحياءَ الماضي ليصبحَ حاضراً بقوة، وبكُلِّ ما فيه من انتكاسات وتفاصيل تم تجاوزها. وهو حاولَ أن يفنى، وألّا يلتفت، لكن الحياة غلبته، فالتفتَ، وأعاد للجرح نزيفه. بالرغم من أنَّ عائلته الصغيرة لم تكُن بحالٍ من الأحوال تجرؤ على الإتيان بذكر ذلك الماضي القديم أو التلميح إليه. كان أمراً من المحرمات عليهم، لكنه من المحرمات اللاتي يتنجنبها طواعيّةً؛ خوفًا على ربِّ بيتهم ومداراةً له.

ففي البدءِ قبل ثلاثة عقود من الزمن كان هذا المنزل الذي يسكنه أبو سالم في هذه الحارةِ الشعبيّةِ مستودعًا لبضاعةِ أبيه، أما المنزل الذي يسكنه أخوه زياد إلى يومه هذا، فهو منزلُ العائلة الذي ترعرع به أبو سالم، ولم يكن ليأتي على باله، وهو في أول شبابه يرسمُ الأحلامَ الكبيرة ويتأملُ شكل الغد الفاتن بأن الحال سيحول ويضطر ليسكن مستودع البضائع. فكان الشرر الذي آذن للأحوالِ أن تتغير وللعشبِ النضِّر أن يحترق، أن أُصِيب أبوه بمرضِ سرطان الغدة، كان مرضًا اجتياحيًا وقد تمَّ تشخيصه بمراحل متأخرة، فما مضت ثلاثةُ أشهرٍ حتى ماتَ أبوه. فعانى صدمةً قاسيةً أخلّت بموازين حياته، وما لبث أن استجمعَ نفسه ليصحو منها حتى صُدمَ مرةً أخرى حين اكتشف أنَّ أملاكَ أبيه،

ومصنع الإسفنجِ، ومحل العرض والبيعِ وثلاثةَ منازل في أماكنَ متفرقة في دمشق قد نُقلت ملكيتها إلى اسمِ أخيه بطريقةٍ غير مشروعة وفق وكالةٍ عامة قيلَ: إن الأب هو من منحه الوكالة، لكن أبا سالمَ شكَّ في الأمر، كان يعلم أن أباه من الذكاء إلى درجة لن يمنحَ بها وكالةً لأحدهما، فتغريه ليميلَ على الآخر. فوكَّلَ محامياً ليطعنَ بالوكالةِ، ويثبت بأنها مزورةٌ لا قيمةَ لها، وأن نقل الملكية الذي تم بناءً عليها غير مشروع. ومضت شهورٌ وهو يحاول أن يعيدَ أخاه إلى صوابه قبل أن يُنقَلَ الأمرُ إلى المحاكمِ والقضاء، فأدخلَ وساطاتٍ بينهما، وبذلَ جهداً غير قليل، لكنه فشل، فشلَ بأن يُغيرَ شيئًا مما آل إليه واقعه. كان المستودعُ الذي تحوّلَ فيما بعد إلى منزل، هو الممتلكُ الوحيد الذي بقي باسمِ الأب وقد رضي زياد أن يتنازلَ عن حقه فيه لأبي سالم، وكانَ منه أن اقترحَ أيضًا على أبي سالم أن يبقى مقيمًا في منزلِ العائلة، وأن يستمرَّ في العملِ في مصنعِ الإسفنجِ، كما كان أمره قبيلَ موتِ الأبِ براتبٍ شهريٍ مثل أيِّ موظفٍ آخر، لكن المُلكَ لزياد.

حينها كانَ أبو سالم قد جَمع نفسه، فرفض كل الرفض بأن يبقى في ظلالِ أخيه وقد تقطّعت عليه جميع السُّبل لاستردادِ حقه. ومضى بالمالِ القليل الذي معه، وبدأَ حياةً هي الأقسى في البدايات، بداية الإنسان الكسير الجناح الطريد من عشّه والوحيد الفاقد لبوصلته. لقد حاولَ أن يستردَّ ولو شيئًا ضئيلاً من حقه،

لكن محاولاته كانت على كبرها أضعف من سلطتَي القانون والنزوع إلى المصلحةِ الشخصية، ومنذُ ذلكَ الحين لم يجتمع الأخوانِ في مكانٍ معًا، ولم يرَ أحدهما الآخر إلا في بعضِ المصادفات والمناسبات العائلية القليلة التي أتاحت لواحدهما أن يرى الآخرَ من بعيدٍ دون أن يقترب أحدهما إلى الآخر.

وعلى ذلك جعله الشعورُ بالذنب اتجاه الحلبي في هذا اليوم يستجلبُ كُلَّ الذكريات الأليمة التي دُفنت في رأسه، في حين كانت أم سالم تتأملُ وقد رأت أن سيرةَ زياد قد أتت لتطرقَ بابهم بأيادٍ عدة، وهي التي لم تكن شاهدة على أحداثِ الخلافِ، فقد تزوجت من أبي سالم بُعيدَ انفصاله عن أخيه وتجرعه الشقاءَ من كؤوس الدهرِ المختلفة، تأمّلت بأن ينالهم بطريقةٍ ما شيئًا من رغدِ العيشِ التي كانت تسمعُ عنه ولم تره. لجأ بعد تفكير إلى المعلم عبد القاهر، كان الحلُّ ظاهراً أمام عينيه، لكنه أراد أن يتجنبَ البوح به، وأن يقوم شخصٌ آخر بإملائه عليه.

حينَ دارت كؤوسُ الشاي على الجالسينَ في الورشةِ سأل أبو سالم تميمَ الحلبي مصارحةً بعدَ أن قصَّ على عبدِ القاهرِ رؤوس القصةِ، وعلى مسمعٍ من تميم: هاتَ، فحدثني أيُّ عقلٍ دفعك لمشاجرةِ زياد على أمرٍ طوته الأيام؟ واستمرَ عبد القاهر وأبو سالم بالتحديق في الحلبي الذي بقي صامتًا، ولم يحرّ جوابًا لما سمع. فأضافَ أبو سالم بصوتٍ ثائر: إنها صفحةٌ لطخها الحبرُ ونُسي

خبرها، ولو كان بوسع الكلام أن يعيد لها ابيضاضها ويصلح ما أصابها لتحدثنا. لكنه جهدٌ مهدور.

استشفى عبد القاهر أن كلام أبي سالم يحملُ من التأنيب واللوم أكثر مما يحمل من التسكين والتهدئة، وكان جليـاً له أن تميم في حالته هذه به من صنوف العذاب ما يجعله راغبـاً عن الزيادة، فتدخل: لولا كِبرُ شأنك عند الحلبي، لما أخذته الحميّةُ ليفعل ما فعل.

لكنَّ أبا سالم كان حانقـاً، فأجاب قبل أن ينهي عبد القاهر كلامه: إنَّ اللوم عليكَ أنت بأن حدثته في الأمر، ونفختَ في الرماد. وما الذي أدراه هو برأيي في الأمر حتى ينصتَ إلى رأيك ويقيمَ رأيـاً على رأيكَ ويضعُ نفسه في موقفً لا يزاحمه به عاقل. فهل أفادني بشيء؟! أقسم أنه ما زاد على أن أوجع قلبي عليه، وفتح بوجهي أبوابـاً كنت قد أوصدتها وأرحتُ نفسي مما خلفها.

يفهمُ عبد القاهر الآن أن أبا سالم أراد أن يفرِّغ غضبه على الحلبي، أراد أن يهزَّ ثقته بأفعاله ليستطيعَ بعد ذلكَ قيادته دون بذل جهد، فإن الإنسان حين يريد تسيير الآخرين عليه أن يشعرهم بأنهم مخطئون، وأنهم راضخون تحت نير الخطيئة. لكن غضبَ أبي سالم كان حقيقيـاً بالرغم مما فيه من بعض التكلّف.

استمرَ الحلبي بهزِّ رأسه كأن الكلام ليس موجهـًا لـه، إنمـا هـو حديثٌ بين الجالسين أمامه وهو مستمعٌ لا غير. أليس عندكَ شيءٌ لقوله؟ أضافَ أبو سالم.

– بلى عندي، عندي من الكلام الكثير ولكثرته حرت بأيٍّ منه أبدأ، فانتقيت الصمت.

– كان خير لـك أن تصـمتَ مـن البدايـةِ، أأحمقٌ أنـت؟! أقـرب النَّاس إليَّ من عائلتي لزموا السكوت حين كان لزامـًا عليهم أن يتحـدثوا، وأنـت اليـوم تقـف منفـرداً لتتـبجحَ بقولـك وتقوّضَ بنـاءَ أسـرتك دون طائـل. أستكونُ فخـوراً بنفسـكَ حينها؟ حينَ تصحو من سكرتك لتجد أن البناءَ الذي شيدته هـدَّ فـوق رأسِـكَ، وأن الزهـرَ الـذي زرعتـه حصـده منجـلٌ أعمى. ما سيكون شعورك حينها. ستكون سليلَ ندفاتٍ مـن ثلـج خلقـت شـكلاً ممـاثلاً لبشـريّ، لكنهـا صـورةٌ صـمّاء وباردة لا تلتفت لنأمة ولا يستنطقها ضَيم.

إنَّ تميم خنقته العَبرات وهو يلحظُ جحـوداً مـن أبي سـالم، ثُـمَّ تختلفُ رؤياه، فيراه مشفقـًا. لا يعلمُ لماذا وفي هـذه اللحظـاتِ أتـاه طيف أم يحيى المجنون، أرادَ النهوضَ، سبقته ركبته بالفعـل، لكنـه صبّر نوازعه، وسكّنها إلى أن قال بكلامٍ منهمل: إنَّ الحقَّ أولى بأن يُقال ولـو تنكـرَ لـه الوجـود، فالكلمـة التـي يحـاولُ الإنسـانُ خنقهـا خوفـًا من تبعاتها ستكبر يومـًا وتقوم هي بخنقه. كيفَ لي أن أجلسَ

معه وأتودد له وفي داخلي إحساسٌ مختلف، لستُ ذا وجوهٍ متبدلة وما عرفتُ يومًا أن أكون كذلك. إذاً ليعرفَ كُل واحدٍ المقام الذي صعدَ إليه أو هبط، ولا يلم الآخرين إن هم عابوا عليه مقامه. وعليك أنت أن تدركَ أن لا ذنبَ لك بما جرى معي، فإني أخبرته بحقيقته لأكسبَ احترامي لنفسي، وليسَ لأصحّحَ خطأه، وأعيد لك حقك. وبعدَ كُلِّ ما جرى لو أنّي جالسته مرةً أخرى، فسأخبره بأنه محتالٌ، وبأني سأظهرُ له الاحترامَ؛ لأنه والدُ زوجتي وجدُّ ابنتي لا غير.

لم يأتِ أبو سالم على ذكر الصفعة التي نالها تميم، سكت عنها، وكذلك فعلَ الحلبي وهو متيقنٌ بسريرته أن أبا سالم قد علمَ بها ويخفيها تحت أضراسه، فكانَ خجلاً من نفسه كأنَّه موسومٌ بالذلِّ، وسمٌ نفذَ من جلده إلى قيعان روحه، فنهضَ وغادرَ بعد أن أتمَّ قوله دون أن يلقي التحيةَ. وقد خيّم السكون بعد خروجه إلى أن أضاف أبو سالم: إن بقي الوضع على ما هو عليه ربما لجأ إلى القضاء ليرى ابنته.

- لا أظنه سيفعل... لقد لمّح في كلامه أنه ميّال إلى الصلح.

أجاب أبو سالم بغيظٍ: لمّح...! هنا لا مكان للتلميح وتورية الحقائق، إننا في الشؤون التافهة نملي انحيازاتنا بوضوح حتى إذا ما جدَّ الجدُّ في قضيةٍ تُناطُ عليها المصائرُ انتابنا خجلُ الطفولةِ وجبن الرجولة، وصارت آراؤنا تُدَسُّ بحذرٍ بين الكلمات.

- لا تأخذه على محمّل الجد إلى هذا الحد، لقد آلمتَ الرجلَ من حيثُ أردتَ مواساته، ويكفيه من لوعةِ التشتيت ما به، فلا تَزد عليه.

هنا صَمت أبو سالم، مال بجسده وأخفضَ رأسه، بينما تابعَ عبد القاهر: ارمِ بالأمرِ عن عاتقك، سآخذُ يدَ الحلبي وأمضي به إلى أخيك، وقد أصحبُ معي من أصحابنا من لكلمته سلطة على زياد، فلا أعتقد أن يحفظَ لي حقَّ ذهابي إليه، وألّا يعاندَ وقد مرَّ زمنٌ ولم ألتقِ به... إنّ البعدَ يحطُّ مكانةَ الإنسانِ عندَ الآخرين تماماً مثلما يفعلُ القرب.

عاجلت عبد القاهر نظرة استنكارية من أبي سالم، فهمَ منها غايةَ صاحبه، فأكملَ عبد القاهر مسترشداً: إني نحيتُكَ عن الذهاب لمعرفتي نفورَكَ منه، ولكن لنذهب معاً إن وددت ذلك. صمتَ هنيهة، ثُمَّ انثنى عن رأيه: إذا وافق الأمرُ هواكَ، فالأفضلُ أن تذهبَ بمفردك. هذا الأفضلُ للجميع، خذ بيدِ تميم، واذهب إلى أخيك.

(13)

ليس بمفهومٍ لدى تميم على الأقل ما الذي حثّه على الذهابِ إلى بيت يحيى المجنون، كان شعوراً دافعـاً، فإن سأله أحدٌ عن سبب ذهابه، لما عَرَف كيف يجيب. وصلَ إلى دكان مهند، فاصطحبه من الدُّكان، ولحُسن حظِّ الحلبي كان المجنون كدأبه يسعى بينَ بيوت الحارةِ على نظرٍ من الجميع، هو الذي ما عرفَ معنى لزوم المنزل من اليوم الذي عادَ فيه مجنونـاً إلا في أوقاتٍ استثنائية، فكانَ إيجاده أمراً هينـاً.

حينَ دخلا على أمِّ يحيى وهُما يصحبان ابنها، خاطبها مهند: لقد وعدكِ الحلبي بزيارتكِ مرةً أخرى وها هو أمامكِ يفي بوعده. عندما سأله مهند لما يريد الذهاب إليها لم يجبه، كان ناسياً الوعد مدفوعـاً بحاجةٍ لم يفهمها، فتذكرَ وعده الآن وسألَ نفسه: أحقـاً جاءَ إيفاءً بالوعد؟ وتركَ السؤالَ معلّقـاً في فضاءِ الكون الآثمِ مثلَ ملايين غيره من الأسئلة، أسئلة دونَ أجوبة على هذا النهجِ يسيرُ الكون، فيتمدّد ليتسعَ لها. لكن صدرَ الإنسانِ محدود ويخنقه كلُّ سؤال بلا إجابة، وأقصرُ النَّاس عمراً أولئكَ الذين هزمتهم الأسئلة. هل تولد الأجوبةُ مع الأسئلةِ ثُمَّ يفترقان، ويتخاصمان، وتنبتُ بينهما البغضاءُ فلا يلتقيان؟! من يدري؟!

وجد أم يحيى والتعب قد ربا على وجهها، أعدلت جلستها وبقيت مستقرّةً الذي يعرفها يعرفُ أن الجلوسَ الطويل غير معهودٍ

في ملّتها، لكنَّ للزمنِ القول الفصل، ومهما حاولَ الإنسانُ أن يغلبَ الزمنَ ويطوِّعَ الجسد، فلا بدَّ من مجيءِ يوم تكونُ الغلبةُ فيه للجسدِ الواهنِ والزمن المتقادم. ومع هذا، فإن عينيها بقيتا نشطتين بعد أن خانتاها قدماها، بقيتا تسعيان من زاويةٍ إلى أخرى ومن الباب، ثمَّ تسهمان إلى النافذةِ الوحيدة التي تطلُّ على الحارة، ثُمَّ تعودُ هادئةً لتتفرسَ وجهَي ضيفيها، إنَّ هذه اللحظات من أعظمِّ اللحظاتِ التي تُسرُّ بها نفسها، اللحظةُ التي يأتي بها أحدٌ ليزورها ويطمئنَّ على ابنها، فمن بينِ كُلِّ المخاوف التي تسكنها، كانت تخاف الرَّحيل، فلا تبقى لابنها بعدها عينٌ ترقبه وتسهرُ عليه. مَن للرجل بعدَ رحيلِ أمه؟ من يسدُّ ذاك الفراغ الذي يخلفه رحيلها؟ يولدُ المرءُ، فيتلقاه صدرُ أمه طفلاً، فإن شبَّ ضمّه صدرُ حبيبته حتى إذا ما شاخَ مالَ بثقل الزمن على صدر ابنته. الحياةُ صدرُ أنثى. وهو لا صدر يمنحه العطف سوى صدرها. فكانت تواسي نفسها حينَ ترى القلّة من الملهوفينَ عليه، فإذا كانت في الحي سارعت لتخدمَ كُلَّ فردٍ فيه ولو بشيءٍ صغيرٍ يحتاجه وتعقد الروابط مع أطفالِ الحيِّ خصيصاً، فجيبها ممتلئ بالسكاكرِ على الدوام، أعطِ الطفلَ سكّرةً يخدمكَ في شبابه، وكانَ كُلُّ هذا لتأمنَ أنها إن هي غابت في يومٍ من الأيام ردَّ النَّاس فضائلها على ابنها.

ولوقتٍ قصير جلسوا بصمت ويحيى يتوسطُ الجالسين، يحكُّ كفَّه الأيسر بركبته ويده اليُمنى في مكانها متداريّة تحت معطفه كأنها

قد زرعت وجزّرت في صدره، فلم يقوَ على خلعها. قالت أم يحيى وهي تشيرُ إليه: يزداد هدوءه في فتراتٍ متباعدةٍ، وحينَ أراه وقد خفَّ به الاضطرابُ أظنُّ أنه سيشفى مما هو فيه، وسيعود له ولو جزءٌ من عقله، جزءٌ يجعله قادراً على أن يعيشَ حياة البشر ولو كانَ أقلَّ من أيِّ إنسانٍ غيره. لكنَّ حلماً خبيثاً يأتيه بين حين وحين يردّه إلى أعتى درجات الجنون، يكونُ نائماً، وكل ما في الكون هادئٌ يحاذرُ إزعاجَ المنعمينَ في أحلامهم، فيغمغمُ في نومه مثلما يغمغمُ الآن في صحوته، ويتكوّر، ويتضوّر، ويتعرّق، وحينَ تأخذه يدُ الصحوة يزوي في واحدةٍ من زوايا المنزل. حينها وهو بتلك الحالة أعلمُ أن ما من أحدٍ سيقدر على الاقتراب منه، وأنَّ تسكين هلعه يكون بتركه وحيداً، فأتركه وأرقبه من بعيدٍ، وبعد ساعاتٍ أقتربُ منه بحذرٍ كما يقتربُ العابرُ المسالمُ من وحشٍ جريح، فأمسحُ على رأسه، وألثمُ جرحه حتى يأنسَ بي رويداً رويداً. لكنَّ الخوفَ لا يبارحه في الأيامِ التي تلي الحلمَ، فينقطعُ عن الخروج من المنزلِ إلى أن يطمئن. وعلى هذا المِنوال تمضي حياته.

سألها الحلبي عن تلك الأحلام التي تأتيه، فأجابته وهي تضحكُ: مَن يراكَ يظن فيكَ الذكاء، ومن أين لي أن أعلمَ؟ أجابها وكان مهند ينقل البصرَ بينهما: ليسَ للمجنون من يروي قصته.

انتبه إلى زلّة لسانه، إذ وصفه بالجنون، فأعدلَ خجِلاً، بينما لم تكترث هي، فقد أخذت لقبها في السنوات الأخيرة من جنون ابنها،

ففي هذه البلاد مثلما يحملُ الأبناءُ صفات آبائهم التكوينية يحملُ الآباءُ ألقاباً من صفاتِ أبنائهم المجتمعية. وهي اعتادت أن تسمعَ بعضَ أهل الحي يشيرونَ إليها بأمِّ المجنون أو والدةُ المخبول، أو غيرها من الأسماءِ التي تدلُّ على السِّمَة اللازمة لابنها.

تململَ مهند في جلسته، فمالَ على الحلبي، وهمسَ في أذنه بأنه يريدُ العودةَ إلى الدكانِ، ثم خرجَ. حينها تحاملت أم يحيى على نفسها، وأعدَّت الشاي، وجلسا كلاهما يحدقان بيحيى ويراقبان حركته وهو يمسكُ كأسِ الشاي بأصابع مشدودةٍ كأوتادِ. في حين كان جلياً لأمِّ يحيى أن ضيفها الطارق يجلسُ حاضراً بجسده، لكن روحه تحتَ قيدِ الحزنِ في مكانٍ وزمانٍ مختلفين. فأرادت أن تحرره من ذلك النير، وأن تمسحَ على جروحِ أيامه كما اعتادت أن تفعلَ طوال سنواتٍ مع ولدها، وبالرغم من أنها تجهل ما حاقَ به إلّا أن عذاباتِ البشر متشابهة، آلام كسورٍ أخلفها أولئكَ الذين يملكونَ السلطةَ العليا في العلاقات بيننا نحن بني الإنسان. أرادت منه أن يندفع وبمشيئته بالكلامِ، فباعدت بينَ الحديثِ وبينَ ما يجول في خاطرها: حينَ كان يحيى في عُمُرٍ يقاربُ عمركَ الآن عشِقَ واحدةً من بنات هذا الحي، فكانت تلكَ أيام سعده. أخبرني بالأمرِ، وبعدَ جهدٍ خطبتها له، فكانا كأجملِ خطيبين لك أن تتخيلهما. غريبٌ ما يفعله العشقُ بالعاشق كأنه يولدُ من جديدٍ لا يحملُ صدره سوى الجمال، فينثره على الكون من حوله. هو بعثٌ

نحو الخلود أو موتٌ لا بعثَ بعده. سيطرت على أم يحيى فقاعة الصمت التي أحاطت بالحلبي، وأعادته منصتاً إليها، فسأل بعد أن انتهت: وبعدَ ذلكَ ما الذي أتى؟

أجابت وهي تمدُّ ساقها اليمينَ أمامها: جرى كُلَّ ما لا يستطيعُ مخلوقٌ احتماله. وابتسمتْ وهي تتابع:

فالأيامُ العجافُ نصيبُ كُلِّ حي.

أناخ الحلبي رأسه، ثم تابعَ: نعم... إنها نصيبُ كُل حي.

- وأيامك عجافٌ الآن.

- وليسَ بمأمونٍ عليَّ تجاوزها.

- إني ويحيى أمامكَ، قد تجاوزناها.

رفعَ الحلبي رأسه، نقّلَ بصره بين الأم وابنها وتابعَ على تردد: لا أرى هذا.

- ترى السوءَ في حالنا الآن؛ لأنّكَ تجهلُ ما كانَ قبله. هنا أمسكت أم يحيى لسانها للحظاتٍ، ثم أفلتته وهي تشير بيدها إلى المجنون: مرَّ عليه حينٌ من الزمن تجرَّع به من صنوف الذلِّ ما لا يخطرُ على بال بشر، هُشِّمتْ روحه، سفَّ من زوايا الأرضِ بقايا الأملِ ليحيا، وها هو الآن نصره الوحيد في دنياه أنه بقي على قيد الحياة، دنا منه الموت، وأقامَ جانبه حتى سئمَ واحدهما من الآخر، فأخذ منه أشياء

وتركه على قيد الحياةِ وذهب. أليست الحياةُ نصراً... وكُلُّ ما عدا الموت هين؟!

انتابها سعالٌ جاف أرهقَ صدرها وقطعها عن الكلام، فأسعفها تميم بكأس ماءٍ نالت منه رشفةً، فبلّت حلقها، واستندت بعد ذلكَ إلى مسندٍ من صوف وهي تمسح وجه يحيى بعدما اقترب منها بمنديلٍ كان في جيبها، وأضافت بصوتٍ متقطِّعٍ، فقدَ عقله، لكنه لم يفقِد حنانه.

هنا سأل تميم السؤال الذي كان يحاذرُ أن يسأله: وكيف فقد عقله... ما الذي أودى به إلى هذه الحال؟ فتغيّرَ وجه أم يحيى، نظرت إلى ابنها، فانتابها الخوف، فطالما سألها النَّاس واستفهموا عن سبب جنونه، وطوال سنواتٍ حافظت على ابنها بكتمان سره. فاضطربت، وبإيماءةٍ منها فهمَ الحلبي أنها تريدُ سكوته، لكنَّ غضبةً انتابته أفلتت لسانه بالقول: من سيروي قصة المجنون إن سكتِّ عنها أنت، لا تميتي له حقه بصمتكِ الأزلي. أبسطُ حقٍّ للمسحوق أن تروى قصته وتعادُ على الأسماعِ حتى تنزلَ في القلوِب منزلةَ الدمِ من العروق. فإن فقدَ النطقَ، فأنتِ اليوم لسانه.

عادت نوبةُ السعالِ إليها، فسكتَ الحلبي، ولم يكمِّل. وسّدها فراشها، وغادرَ مودعاً إياها ببسمةٍ.

***

على مسمع من السَّماء أخذَ يهمسُ:

وَقَد أَبعَدوني عَن حَبيبٍ أحبُّهُ فَأَصبَحتُ في قَفرٍ عَنِ الإِنسِ نازِحِ

ويكرره إلى أن وصل إلى دكان مهند، فبادره بالقول بعدما جلسَ جانبه: ما كانَ لك عند أم يحيى...؟! حسبتُ أن أمراً مُلِحّاً دفعكَ لقصدها... أمراً يستدعي الإضمارَ ومسك اللسان، فإذا بكما كأنّكما في جلسة سمر.

لثوانٍ ربما امتدّت إلى دقائق لزم الحلبي الصمت، كان قد فهِم ووجدَ لسؤاله الذي شغله إجابةً خاليةً من الزيف. وبهدوءٍ أجاب: كُنت أتسوّلُ المأساةَ.

قالَ مهند بتهكم: جُنَّ الرجل... أصابته عدوى الجنون. إلهي وسط هذا الجنون كلّه كيفَ لي أن أعيش؟! ثُمَّ أبطأ في كلامه حين فَرِسَ صدق صاحبه واستزاده بإيماءةٍ عابرةً، فاستأنفَ الحلبي مجيباً لها: إني الرجل الذي يتسوّل المأساة، أمدُّ كفي للناسِ ليضعوا بها حصادَ أعمارهم من المآسي، فقد ينفعُ السقيمَ، ويُبرِئُ علّته أن يستشعرَ سقمَ غيره.

- لستَ سقيماً... وما وقعَ لكَ هو أمرٌ يقعُ في كُلِّ بيت. إنَّ عقلكَ فقد اتزانه حتى استمرأ الألم وأدمنَ عليه. هذا الذي بين كتفيك إلى أين ستدعه يذهبُ بك؟

التفتَّ الحلبي إلى مسارٍ آخر في الحديث هرب كما اعتادَ دائماً أن يفعلَ حين يلحظ بادرة للنصح من أحد، فالنصائحُ تكشف استعلاء صاحبها وأنانيته التي لا يحس بوجودها، تكشف التلهف

الإنساني الأرعن لاتخاذ دور المرشد قبل الإنصات لآلام الغير واحتضانها. حينَ يأتيكَ الألمُ على شكلِ كلماتٍ عليكَ أن تنصتَ لها أن تفتحَ لها يداكَ وتجويفَ صدرك لا أن تقاطعها بإرشاد مبتذل، فتكسر بذلك قدميها وتشلّها عن السير. كذلكَ كان يحدث نفسه دائماً، وغالباً ما كان يفشل في إجبارها على الإنصات للآخرين، فيجد نفسه قد بدأ بتوزيع النصائح، وفعل ما اعتادَ أن يعيب على الآخرين فعله. سأل وهو يمسحُ وجهه بكفّه: لِمَ غادرتنا وتركتني وحديَّ عندها؟!

- إنها الساعة التي يعود بها أبو سالم من عمله، وودتُ أن أكون هنا عند عودته.

- ولِمَ...؟!

مدّ مهند يده ومن تحت مكتبه أخرجَ كيساً أسود وأربع عجلاتٍ خارجية كانت قد ربطت إلى بعضها بسلكٍ معدني، وأضاف وهو يرفعهنَّ بيده: أتيته بهدية. أجاب الحلبي وقد راودته ابتسامة: إنّك تخطئُ بوجهتك، فالهدايا بعد اليوم لخطيبتك، وليست لأبيها.

***

كان غطاءٌ من الزهرِ قد جلّل مهند في الأيامِ الأخيرة تدارت تحته كُلَّ شوكةٍ كانت تضايقُ الناظرين له. غطاءٌ أخفى عيوبه كما يخفي الليلُ نمنمات البناء. فأمسى بعد أن طلب خطبةَ بثينة من

أبيها أرقَّ مما كانَ وأكثرَ اتزاناً كأنه عابدٌ يرى عينَ الربِّ في صحوها ناظرة إليه. وعلى عكس ما جرت عليه العادة في المدينة، فقد آثرَ أبو سالم أن يتعارفَ الخطيبان بعمق قبل إقامةِ حفل الخطوبة، وقبل أن تأخذ حالتهما شكلها الرسمي والشرعي المعهود. ففسحَ ذلكَ له المجال بأن يتردد إلى بيت أبي سالم كلَّ ليلةٍ ليقضي ساعةً من الليلِ عنده وتُتاحُ له فرصة الحديثِ مع بثينة بمباركةٍ من أبويها. فكانَ مندفعاً أن يمتزجَ بالعائلةِ سريعاً كأنه أحدُ أبنائها، وأن يمسِكَ زمامَ كلِّ أمرٍ ليثبتَ جدارته لَهُم، وأنه عكسَ ما يشاعُ عنه من قلّة الخُلقِ وفسادِ المعشر. وقد رأى أن أم سالم زاهدة به، فزادَ ذلكَ من اندفاعه. فخطرَ له بادئَ الأمرِ أن يقترحَ على أبي سالم المساعدةَ في إصلاحِ أنابيب الصرف التي تغرقهم ما بينَ حينٍ وحين. وبفراسةٍ قلما ظهرت عنده علمَ أنه من التكلّف والابتذال أن يعرضَ عليه هذا الأمر، وأنه لو حاولَ لربما أحرجَ أبا سالم أو أشعره بالتعالي عليه دون أن يقصدَ ذلك. وعلى وجه الخصوصِ أنَّ أبا سالم قبلَ أن يعطي موافقته على هذه الخطبة سدَّ كامل المبلغ الذي كان قد استدانه من مهند. وفي اليوم التالي ذهب إلى منزلهم وأخبرهم بالقبول، فشعرَ مهند أن اختيارَ أبي سالم لذلكَ التوقيت لسدادِ دينه وهو وقتٌ أدنى مما كانا قد اتفقا عليه هي إشارةٌ منه بأنّه حرٌّ من قيودِ التفضُّل. وقد صدق حدسه، فكانت هذه حقّاً غاية أبي سالم التي ما كان ليختلف على

فهمها اثنان. فأرادَ مهند أن يخفِّفَ الأمرَ، فما تكونُ هديّته مائعة تنسى ما بين ساعةٍ وأخرى، ولا أن تكونَ كبيرةً يستثقل أبو سالمَ قبولها، فاختارَ بأن يغيّرَ له عجلات العربة التي سئمَ منها، فيمنحها له كهديةٍ.

حين أنهى الحلبي كلامه لمح مهند من خلف الزجاج المطل على الدَّرب أبا سالم وهو يدفع عربته أمامه، فقفزَ من كرسيه كالملسوعِ والأغراضُ مازالت بيده، بينما بقي الحلبي متسمراً مكانه، فقد انقبض قلبه حين رآه مثلما انقبضت ملامحه، فلم يشَأ أن يلتقيه أبو سالم الآن بعدما جرى بينهما في ورشة عبد القاهر، فبقي لاطيـًا في مكانه يحاولُ ألا يكون مكشوفًا لمن هم خارجَ الدكان. كان يَرى ولا يُرى، يَسمعُ ولا يُسمَع، هو الحاضر والغائب في الوقت ذاته ومن خلفِ الزجاجِ أبصر الملامحَ المقهورة لأبي سالم وضحكةً خجولةً تُزهرُ على وجهه عندما مدَّ مهند له الهديةَ. ثُمَّ بعبوسٍ سرمديٍّ ينازعُ الضحكةَ الفتيّةَ أعادَ الهديةَ لصاحبها. سمعَ كلماتَ الشُّكر التي يفضحُها التردّد وإلحاحٌ من المُهدي على القبول كانَ كمن يشاهدُ مسرحيّةً الكذبُ فيها حقيقيٌّ وصادقٌ أكثرَ من الصدق نفسه. سمعَ أبو سالم يقولُ بصوتٍ خافتٍ وأعانته حركةُ الشفتين على فهم بعضِ الكلمات التي لم ينجح بسماعها: أقسمُ لك أني أشتريتُ العجلات، أربع عجلات جُدد، من أجود الأنواعِ وأطولهنَّ عمراً. لكنهم بقوا عند البائع. حتى إذا ما فرغتُ

خلال أيامٍ ذهبتُ إليه ليقوم بتركيبهن على العربة. حينها بدت على وجه مهند الخيبة، فقد كان يأمل أن يُسعِدَ أبا سالم بهذه الهديةِ ويرفع عن كتفه بعضَ الشقاءِ الذي يعيشه.

في هذه الأثناء خجلَ الحلبي من المكوث داخلَ الدكان، خجلَ من أن يراه أبو سالم وهو محجمٌ عن الخروجِ إليه، فبالتأكيد حسبما فكّر أن مهند سيخبر أبا سالم بوجود الحلبي عنده، وليسَ له من عذرٍ لعدمِ الظهور إليه، فدفعه الخجلُ للخروج. حيّاه أبو سالم بتنهيدةٍ أبانت مقدارَ عذابه، ولم يزد فوقَ التحيّةَ كلمةً، واكتفى بأن أطرقَ رأسه ومضى يدفعُ العربة ويجرُّ همّه. بينما أعادَ مهند هديته إلى الدكان وليس معه سوى خيبة الرجاء وهو يضمرُ نيةَ إعادتها للمتجرِ واستردادِ ثمنها حسبما أخبره أبو سالم.

(14)

تُعرف المرأةُ من صوتها، ففيه البيانُ الأوضح لانفعالات نفسها مهما حاولت الكلمات أن تخفيها. وكذلكَ كانت حقيقةُ السعادة الواضحة في صوت بثينة جميلة غرّاء مثل جديلة من ضياءٍ على كتف الليل. فحريٌّ بالسعادة أن تطوِّقَ على كل عاشقين لهما موعدٌ بالوصال.

بقيت تراقبُ الساعةَ بحذرٍ بعد أن أتمّت زينتها لملاقاةِ مهند وفقَ ما وعدها بزيارةٍ لهم عند قدوم الليل، وحسبَ رأي أمها جعلت تزيّنها معتدلاً بسيطًا، فمنحها الاعتدال بالزينة تطرفًا بالفتنة مثلما منحتها البساطةُ تعقيداً بالحُسن حتى التبس على الرائي لها مكمنَ الجمال وسره. أخذت تغني بصوتٍ رقيق وهي تجيءُ وتذهبُ أمام المرآة، تلاحقُ شعرةً منسيّة أعلى حاجبها الأيمن بملقطٍ دقيق، تبتسم فتلحظُ ابيضاضَ أسنانها، فيعجبها وتعاودُ الابتسام، فتزعجها بعض تجاعيد ظهرت، ثُمَّ اختفت على خديها وتدقّقُ النظر... تتأكدُ أن ذاك السواد المزمن حول عينيها استترَ كُليّا تحت المساحيق، فتأخذُ على نفسها عهداً أنها لن تطيلَ السهر بعد اليوم، ولن تسمحَ لنفسها بالبكاءِ حتى وإن اختنقت بدموعها. تبتعدُ عن المرآة لترى كاملَ جسدها وقد لفّه فستانٌ مخمليٌّ جديد، تضغطُ بخوفٍ على ثدييها وتمنعها محاذرة الإثم أن تنتقد اللينَ فيهما. فتلتفُّ حول نفسها مرةً واثنتينَ، ثُمَّ تعطي قُبلة

لانعكاسها في المرآة. أخذت تردد كلماتٍ فيها حرفُ الراء وهي تنظرُ إلى فمها وحركة لسانها... برد... برردٌ. لم تذهب اللثغة. فتعيدُ الكلمةَ ببطء، ثُمَّ بسرعةٍ كأنها تريدُ أن تخدعَ ذلكَ الحرفَ العصي عليها وتمضي دونه. مدّت لسانها حركته يميناً شمالاً، ومدته حتى كاد أن يلامسَ أنفها. أيقنت أنها لن تنجحَ، فلم تكترث وعادت للغناء. راحت تعيدُ النظر إلى الساعةِ بعدَ أن أتعبها الوقوف ومازالت ساعة قدوم مهند بعيدة. وهي كذلك أحسّت بعودة أبيها إلى المنزل، فعاجَلت لملاقاته. كانت هيئته تشي بما وقعَ له طوال اليوم، فوجهه شاحبٌ كأن عروقه جفّت من الدماء كما تجفّ فروع السواقي في أيام الصيف. لم تسأله ما به... حينَ رآها تصنّع بسمةً، فمضت تقبّلُ يده، فضمّها إلى صدره بعناقٍ طويل تمنى ألا ينقطع... تمنى لو كان بوسعه أن يبكي بينَ ذراعيها، فيستريحَ، حاول أن يفلت من قيد رجولته، فما استطاع، فسبقته هي إلى البكاء... راحت تجهشُ بحرقةٍ على صدره، أحسّت بعبراته ولدعتها نارُ آلامه، فما سبقَ لها أن رأته بهذا اللين وما عرفت بوجهه الانكسارَ مثلما عرفت في هذه اللحظات، وكأنّ روحيهما تلاقتا في عالمٍ غير هذا العالم، فبثّت كُل واحدةٍ نجواها للأخرى. أخذَ يمسّد على رأسها دون أن ينبسَ بكلمة، وابتسمَ أخيراً، وعندما رأى أم سالم تنظرُ لهما من باب الغرفة ربت على خدَي ابنته حتى طمأنها ومسح بكفيه الخشنتين ما ارتسم من دمعٍ على وجنتيها،

ومضى إلى غرفته، حيثُ كانت أم سالمٍ تنظرُ إليه، وأغلق الباب خلفه.

حين عادت بثينة إلى الغرفة الآخرى عاودت الوقوف أمام المرآة، فرأت وجهها قد تبدّل؛ لأن العهد الذي أخذته على نفسها بعدم البكاء قد حنثت به سريعاً وغادرتها الضحكات اللاتي كانت تؤنسها على المرآة منذ قليل، فحاولت أن تصلِّحَ من هيئتها، وأن تعاودَ ترميمَ وجهها وهي كذلك أغراها خاطرٌ مفاجئٌ بأن تستمعَ لأبيها لعلّها تعرفُ علّة حالته، ومضت لتسترق السمع لحديث أبويها من خلف باب حجرتهما، فما وصل إليها سوى الصمت المطبقُ. فأبو سالم حينَ ردَّ الباب خلفه خلع عن نفسه المعطفَ، وتمدد في فراشه مغمِضَ العينين دون أن يحادث زوجته بكلمة... فهمت من تعابير وجهه أنه يريدُ الصمت، فطاوعته وحاولت أن تدثره باللحاف، فرماه عن نفسه، وأخذ يتنفسُ بعمقٍ من هواء الغرفة الباردة علّه يخفف من الحرارة المتزايدة التي تنبعث من جسده وأنفاسه... أراد أن يغمضَ عينيه بضع دقائقَ ليبحث في ظلامه عن ضفّة الهدوءِ لعله يستطيعُ أن يخفضَ أشرعته اللاتي أتعبتها الرياح. ذاكَ أنه فوقَ ما أخلفَ به الجدل الذي دار مع الحلبي اليوم وزيادةً عن تردده والصراع المحتدمِ في نفسه حولَ ملاقاةِ أخيه أو الإعراض عنه، أتته هديةُ مهند، فأصابت شيئاً من كرامته، فضاقت نفسه عن اتساع الأمر. وكانت إجابته لمهند بأنه

اشترى عجلاتٍ جديدة كذبة ساقتها الأنفةُ إلى لسانه؛ ليرفضَ الهديّة وينهي التجادل حولها.

حدّثَ نفسه الآن وهو مغمضُ العينين: من أين سأتدبرُ أمر المال لشراء تلك العجلات وما تبقى من ثمنِ سوار الذهب بالكادِ يكفي لتجهيزِ بثينةَ ومصاريف خطبتها، ليت أنه لم يأتِ بتلكَ الهدية، فما كنت لأُلزم بشراء العجلاتِ في هذا الوقت، ولكن لا مناصَ من شرائهم الآن، فلو لم أفعل لاتضحَ له كذب قولي. كانَ همّ أبي سالم الأوحدَ ألا يتركَ سبيلاً لمهند بأن يكونَ ذا فضلٍ عليه أو في مقامٍ أعلى من مقامه أرادَ أن يبقيّا أنداداً على كفتين متكافئتين في الميزان، وهذا ما حفزته أم سالمٍ في نفسه حينَ ألحّت عليه بسدادِ دينه لمهند قبل تتمّة الخطبة، فتفكيرهما على هذا النحو متوافق في مضمونه، إلّا أنَّ أم سالم كانت تهمّها اللحظة الراهنة، فكانت تأنف من أن يوافقَ أبو سالمَ على هذا الخطبة تحت ضغوطٍ من الحرجِ والعرفان بالجميل، لذلكَ كان شرطها الأوحدُ أن يسدِّد أبو سالم كاملَ الدينِ إلى مهند قبيلَ الموافقةِ أو الرفض. أمّا أبو سالم، فإن تفكيره قد شطَّ إلى المستقبّل، فخافَ في يومٍ من الأيامِ أن تتبدلَ أخلاق مهنّد، فيستبيحَ بكلمةٍ كرامةَ بثينة ويستعلي عليها وتأخذه الشياطين لكي يفكِّرَ أنه بلغَ منها بفضائله على أبيها، فأخلاقُ البشر تتغيرُ ومثلما يغيّرُ المطرُ والريحُ من أشكالِ الصخور، كذلكَ تفعلُ السنواتُ بالأخلاق، وهذا من الأسبابِ

اللاتي دفعته أن يختلق الأعذار، ويرفض الهديّة. فكّر أخيراً كيف له أن يلتقيَ مع أخيه، وأتته فكرةٌ بقي يتدارسها في عقله حتى استسلم بكلّه لسطوة النوم دون أن يجيءَ إلى عقله أنه سيفيقُ على حدثٍ ما كان له أن يتخيله في يومٍ من الأيام.

ورجعت بثينة عن الباب دون أن يزفَّ لها أي نبأ عما أصاب أباها، كانت تُخمّن أن لمسألة رشا والحلبي تأثيراً فيما أصابه، ذلك أن رشا خلال الأيام الماضية وبعدَ أن قامت باستدرار عطف عمّها بقيت على اتصالٍ دائمٍ ببثينة لتفهم منها بشكلٍ غير صريحٍ ما ينوي عمّها فعله، فأصبحت بثينة شديدة الحرص على أن تشرك نفسها بالقضيّة وتلعب دور الوسيط في نقل الأخبار لرشا، لا لشيءٍ غير الإحساسِ بالوجود، وخلال وقتٍ قصير نسيت كُل هذا، وعادت روحها لتحلق في أرجاء البيت مثل عصفورةٍ تلهو بين الغصون.

أوشك الليل أن ينتصف ومهند ساهرٌ في منزل خطيبته، في حين لم تقبل أم سالم أن توقظَ زوجها، وقد رأت ما به وقدّرت أن النوم سيجعله بحالٍ أفضل، ومضت جلستها مع مهند وبثينة في تبادل القصص والنكات وشرب كؤوس الشاي بإفراطٍ واضحٍ ونظرات متبادلةٍ بين الخطيبين محمّلة بما فاضت به أحاسيسهما، يختلسانها بحذرٍ لم يمنع أم سالمٍ من أن تحسَّ بها، فزادَ ذلكَ من عنادها وحرصها على ألا تدعهما وحدهما. تهادت أصواتهمُ المرتفعة إلى مسامع أبي سالم وهو في غرفته يتقلب بين الصحو والنوم يدفع عن

نفسه صخبَ الأصوات دفعاً؛ كيلا تأخذه يدُ اليقظةِ من هنائه القصير، لكنه غُلبَ أخيراً، فشعورٌ بالبرد تسلل إليه من بين الأغطيةِ تحت وشاح الظلمة، وأجبره على أن يفيقَ من نومه. كان الطقسُ جافاً، وبرودته قاسيةً، والريحُ تصفرُ في ساحةِ المنزلِ مع تقدُّمِ الليل، وحين غسل أبو سالم وجهه ليزيلَ عنه بقايا النوم أحسَّ بقشعريرةٍ تسري في جسده، فاتجه إلى غرفةِ المعيشةِ، حيثُ كانت عائلته وكان الدفءُ الذي ينقصه. جلسَ على الأريكة جانب مهند، بينما كانت أم سالم وابنتها تجلسان على الأريكةِ الأخرى والمُدفأةَ مُتقدةٌ تتوسط الغرفةَ، وتقوم بالعمل الذي يرجى منها، وسرعان ما صمت الحاضرون، وقطعوا الحديثَ الذي كانوا في خِضَمّه، بينما أخذ أبو سالم يحاولُ أن يتخلّصَ من شوائب النوم وبصفاءٍ ذهني راحَ يمجُّ من سيجارته أنفاساً متقاربةً، ويشدُّ بيده على كأسِ شايٍ مدتها بثينة إليه.

وهنا همَّ مهند بالاستئذان للمغادرة، فقد استحيا من وجوده إلى هذا الوقت من الليل في زيارتهم، وزاد من استحيائه انضمام أبي سالم للجلسة، فكان في تردد ما بين المغادرة أو البقاء ونفسه على أيّ حالٍ كارهةٌ الرحيل. عاجله كلامٌ لم يكن قد فكّر به قبيل الآن في محاولة منه لإعطاءِ أهمية لوجوده حتى هذا الوقت وليطيلَ قعوده ما استطاع: تحمستُ لرؤيتك الآن...، فقد انزعجت قليلاً حين علمت بنومك في وقتٍ مبكر.

لم يجب أبو سالم واقتصرَ فعله على أن هزّ رأسه مبتسمـًا، فتابع مهند: وددت أن نحدد موعداً لإشهار الخطوبةِ وعقد القران.

- قـالَ أبـو سـالم بهـدوء: لـيس بهـذه السـرعةِ... عليكمـا أن تتعارفا، فربما غيّرَ أحدكما رأيه.

لم يفهَم مهند سبب الإصرارِ على تأجيلِ الخطوبة كما لـم يكُـن أحدٌ من الحاضرين يعلمُ سبب رأي أبي سـالم هـذا... بـالرغم مـن محاولـةِ بثينـة وأم سـالم أن يثنـوه عـن رأيـه مـرات عـدة، أو أن يستعلموا حجّته، لكن دون أن ينجحوا. فالحقيقة أن أبا سالم عنده شـيءٌ مـن القلـقِ مـن تقلّـبِ مهنـد، فـأرادَ إن صـدقت هواجسـه ألا تُحسبَ هذه النزوة خطوبةً على ابنته، لكنه لم يبحُ بهذا القلقِ لأحدٍ خصوصـًا أن أم سـالمٍ قـد أخبرتـه بـادئ الأمـر بقلقهـا الـذي هـو في طبيعته يوافقُ قلقه...، فخشي إن هو أخبرها بهذا التوافق بالرؤى أن تُصرَّ على رفضِ الخطوبةِ مـن أصـلها. أجـابَ مهنـد بتعجُـل: لـدينا متسعٌ من الوقت للتعارف بعد إعلان الخطوبة... لِمَ لا يأخذُ الأمرُ شكله الرسمي كما اعتادَ كُلُّ النَّاس أن يفعلوا. إني لأشعرُ بالخجـلِ من قدومي إلـيكم دونَ عقـدٍ يجمعنـا، ولـيكُن الوقـتُ الفاصـلُ بـين الخطوبة والزواج بالقدرِ الذي تحدده.

صمت أبو سالم، بينما زفر مهند واستراح بجلسته على الأريكة وهو ينظـرُ إلـى إبريـقِ الشـاي دون هـدى بحالـةٍ أشـعرت أبـو سـالمَ بالضـياع والـتردد، فطلـبُ مهنـد مشـروعٌ ولا نقـص فيـه أو تكلُّـف.

وأصبحت حواس بثينة متلهفة لما سيخرجُ من فم أبيها بُعيد صمته، لكنَّ هذا الصمت قاطعه طرقٌ على باب المنزل بإيقاعٍ موسيقي موزون وصلَ إلى أسماعهم خافتًا، فنهضت بثينةُ لتجيبَ على زائر الليل، وعادت وهي تقول لأبيها: في الباب رجلان يريدان رؤيتك.

(15)

الخيال فسحة العقل الخطرة لهذا يتفاوت النَّاس بمقدار الجرأة على التخيُّل، هو سرُّ الأسرار والأصل لكلِّ أصلٍ، فما من كائنٍ في الوجود إلا وله نصيبٌ من الخيال، فإذا امتلك الشجاعةَ الكافيةَ للتوسعِ في آفاق خياله كان نصيبه أن يكتشفَ ويبدع ويُصدَم ويُذهَل، ولا شكَّ أن أكبرَ ما سيناله هو الضياع، وحينها إما أن يعودَ إلى واقعه منتصراً بما كُشِفَ له، وإما سيصلبهُ الواقعُ جزاءً بما أتى. فكم من عاقلٍ أسعفه الخيالُ بالأفكار العظيمة، وكانت سبب هلاكه؛ لأنها خرجت عن مألوفِ النَّاس!! وكم من فكرةٍ دُفنت في الخيال لمعرفةٍ سابقةٍ أنها أضعفُ من أن تقاوِم وحيدة وأن حظَّ الجديد من الدنيا أن يُغتالَ على أيدي القديم.

وهناك بعضُ المخلوقاتِ قد سُلبت القدرة على التخيّل دون أن تَشعُرَ إلّا ضمن آفاق رُسِمَت لها وأبعاد حُبِسَت ضِمنها، وراحَ مغتصبو العقول يغذونها بالأوهامِ والشعاراتِ التي تُسكِرُ سامعها ليشعرَ في نشوةِ سكره أنه حرُّ الإرادةِ كفرسٍ بري، فإذا ما صحا يوماً من سكرته واستشعر في حياته الزَّيف جعلَ يحاولُ أن يقفزَ فوقَ حواجز الوهم ليستعيدَ إنسانيّته، وحينها عليه أن يكسر قيوداً تراكمت برقبته منذ يومِ ولادته.

وبالرغمَ من ذلكَ لا يَملُّ النَّاس المحاولةَ أن ينتزعوا لأنفسهم مساحةً صغيرةً من الحريّة في خيالهم، فيها يثورون، وفيها يعشقون،

وفيها يرسمون مساراتٍ إلى أحباء أبعدتهم المسافات، وفيها يجدون الحلول للألغاز العصية هازئين من جمود المنطق. وهذا دأبُ أبي سالم في وقفاتٍ عدة من حياته كان يستعينُ بحظه من الخيال ليسخر من واقعه. وقديمًا حين افترقَ عن أخيه لجأ إلى خياله، فكانَ يتمثّل أشكالاً عدةً للقائهما من جديد، ومن جملة ما تمثّل أن يستفيقَ ليجدَ أن كُل ما جرى له كان كابوسًا، وانقضى كابوسٌ لم يبق منه إلا الذكرى والخوف من أن يعادَ في ليلةٍ من ليالي العمر الباقية، وتمثَّلَ أيضًا في خياله أن يأتيه أخوه تحت ضغطٍ من تأنيب الضمير، فيُصلحَ ما كان منه، وكثيراً ما تمثّل أشياء تُبدّلُ مسارَ حياته، لكنَّ أيامًا طوالاً مرّت عليه أماتت الأمل بأن يتحقق شيءٌ مما كان يتخيّل، وعلى وجه الخصوص في يومه هذا وقد بُعِثت في قلبه كل جروح الدهر وضاقت دنياه كأبشعِ ما يكون الضيق حتى بكى كما لم يبكِ من قبل.

فما كان له أن ينالَ من الخيالِ تعزيةً عمّا هو فيه الآن، ولم يكُن ليفكّر بأنه سيرى أخاه أمامه، وهنا في منزله. فلو أخبره أحدٌ أن أخاه سيطرقُ باب منزله في هذا الوقت من الليل أو أسعفه الخيال بهذا الموقف لأخيه لبصقَ عن يمينه، ولم يكترث.

وفي حالٍ من الذهول أدخلَ أبو سالم ضيفيه، فأجلسهما على الأريكة التي شغلتها أم سالمٍ وابنتها قبلَ قدوم الضيفين وهو عاد إلى مكانه جوار مهند على الأريكةِ المقابلة، وجعلَ يحاول تكلّف

الابتسام، فما نجحَ وسيطرَ على وجهه عبوسٌ هادئٌ، وللحظاتٍ كانت ملامحه باردة خالية من المعاني.

غابَ عنه الكلام، فلم يعرف طريقةً لاستنطاق لسانه، وكذلكَ كان شأن الحاضرين، فمهنّد شعرَ أن في الأمرِ ما يُريب، فصمتَ وبه تلهف ليسمعَ كلامَ أبي سالم. أما الضيفان شقيق أبي سالم زياد وصديقه عبد القاهر، فكانا يقلبان الأمرَ في رأسيهما ليعلما من أين عليهما بدء الحديث. ذلك أن عبد القاهر بعدَ أن أشار على أبي سالم في الورشة اليوم بأن يذهب إلى أخيه ووجدَ كيفَ كانَ وقع الكلامِ على أبي سالم. طفق يُفكِّرُ في الأمرِ ويقلبه في رأسه دونَ أن يجدَ حلّاً يخفف به عن أبي سالم أو يصلّح بين عامله تميم الحلبي وزياد، وفي طريقِ عودته إلى المنزل وجد نفسه دون تفكيرٍ ينحرف بسيارته نحو منزل زياد، أرادَ أن يجازفَ ويلقي الكلمتين الحبيستين في فؤاده، فاستقبله زياد استقبالَ المُنتَظِر وعقب حديثهما الذي امتدَّ وجدالهما الذي احتدَّ خرجا سويًا إلى بيتِ أبي سالم. دونَ خطةٍ أو إعدادٍ لما عليهما قوله كان همّهما أن يتمَّ اللقاء، فيُسكتوا بذلك الألسنةَ العابثة.

وبعد دقائق قُضيت وكلٌّ من الحاضرين يتجنب النظر إلى وجه الآخر قال المعلم عبد القاهر وهو يتصنّع راحة النفس: إنّك تعرفُ مهند، أليس كذلك؟!

هزَّ زياد رأسه بالنفي، فأضاف عبد القاهر: معك حق... فكم من الزمن مضى عليك ولم تزر هذا الحي؟

هنا تدخّل أبو سالم بهدوء، وأخذ يلقي كلماته ببطءٍ وهو ينظر عن يمينه ويتأملُ وجه مهند: إنه خطيب ابنتي وجاري الذي شبَّ بين يدي. ثُمَّ تابعَ وهو يغمز مهند: لا بأس إن خرجت إلى النسوة، واستعجلتهم بإعداد الشاي لنا.

فانسحب مهند من الجلسة وهو يخفي السرور، وفهمَ أن أبا سالم يريد أن يختلي بضيفيه لحاجةٍ ما، فلم يبدي اهتماماً بمعرفتها، إنما همّه أن ستتاح له الفرصة لرؤية بثينة منفرداً... وحين مضى خارجاً زفرَ عبد القاهر ومن فوره قال: اسمعاني... لقد كان بينكما ما كان، ولستُ في صدد استرجاع الفائِت والنّبشِ فيما دُفِن. أنت يا أبا سالم قلتَ وأكدّت غير مرةٍ أن خبرَ الأمس قد طُويت صفحته وأضاعته الذاكرة، ولكن لا... إنه لم ينس، بل إنه حيٌّ وحاضرٌ ما حييتما على هذه القطيعة وعلى إثرِهِ وبسببه اختصمَ تميم الحلبي مع أخيك، وجرى بينهما ما جرى من خصامٍ.

العفو... ليس رأفةً بالآخرين، إنما رأفة بأنفسكم، فإن العفو منجاةٌ من الهم.

وبالرغم من محاولة زياد إمساك نفسه وإحكام أعصابه وهو يستمعُ إلى المعلم عبد القاهر إلّا أنه شيئاً فشيئاً كانت ترتعد جوانبه وركبتاه من تحت بنطاله الواسعِ ترتجفان، وعلى عكسه

استقرَّ أبو سالم ثابت الأعصاب مُتماسكَ النفسِ سبحَت نفسه في هدوءٍ غير مألوف.

قال أبو سالم: لقد انتهى كُلُّ شيءٍ، منذُ زمن بعيد، وسقطت من ذاكرتي تفاصيل عدة، منها ما استغنيتُ عنه بإرادتي، ومنه ما ضاعَ في النسيان. فما شأني الآن فيما يجري بين زياد والحلبي، لقد اعتزلتكم، وهذا أفضلَ ما حصل لي.

خشي عبد القاهر من تبدّل أبي سالم، لكنه للحظات راهن أن صاحبه في أمسِّ الحاجةِ للبوحِ والإفضاء قبل أن يستقرَّ على رأي مسالم. فتردد عبد القاهر بأن يسايره خشيةً من أن يفلتَ اللقاءُ من سيطرته وينحرف عن غايته، فالواحدُ من النَّاس إذا تأججت مشاعره وانطلقَ لسانه، غاب عنه العقلُ ووقع في الخطأ. هنا أجابَ عبد القاهر: إنكَ تتلاعبُ بالكلامِ ليسَ أكثر، فما يربط بينكما أمتن من أن تمزقه الأيام، وأوضحُ من أن تخفيه، ثُمَّ اتجه نحو زياد، واستكملَ ضاحكًا: لو رأيت كيفَ قرّعَ الحلبي اليوم على سوءِ فعلته معك، لعلمتَ مقدارَكَ عنده.

قال زياد: ولكنّه ما زالَ عابسًا... ربما غير مطمئنٍ لرؤيتنا.

وبالهدوء ذاته أجاب أبو سالم: يزعجك العبوس إذاً...! ثم أشاح بوجهه نحو عبد القاهر وتابع: يا له من سخيف مُتكبّر!! أترى إلى تبجّحه وهو يبدي امتعاضه من عبوس وجهي. معه حق، إني وقحٌ وأفتقرُ إلى لياقة الحديث واستقبال الضيوف.

وبحالٍ من الصمت دخلَ زياد وهو يرتجي أن يتدخّلَ عبد القاهر ليجيبَ بدلاً منه. فحرّك أبو سالم كتفيه والتصقَ بمسند الأريكة وكفَّ لسانه. وتدخل عبد القاهرِ أخيراً محققاً أملَ زياد بالإجابةِ عنه: ولكن يا أبا سالم ما هكذا يكون الحديث، إننا فوقَ كُلِّ شيءٍ في ضيافتك.

أجابَ أبو سالم: هل كنتَ تنتظرُ مني أن أستقبله بالقُبلات والأحضان؟! أن أُجبرَ نفسي على ما لا تستطيع.

قال عبد القاهر:

تريّث بقولك يا رجل، ما أتى أخوكَ اليومَ ليسمعَ كلاماً مسموماً منك، فمثلما حمل نفسه على الإتيانِ إليكِ احمل نفسكَ على ما تكره. الأيامُ تنسي والود يعود، فتكونوا بعد ذلك أحباباً مثلما كنتم.

- لا تضعنا سوياً على كفتي ميزان، فأينَ أنا منه، وأين حالي من حاله... حين أعرضت بوجهي عنه كانَ في مأمنٍ تحت سقفٍ يستره، وحينَ أعرضَ عني كنتُ كالكلبِ الضالِ أتلقفُ رزقي من المزابلِ. حين رفعَ أنفه فخراً بنصره كنتُ أنا خصمه المهزوم. واليوم لمَ يعد؛ لأن سيرتي عادت إليه لتهدمَ ما بناه فوق رأسه ورؤوسِ أفرادِ عائلته، لكنني إن عدت أنا، فإن عودتي ستكونُ لحمايةِ عائلته منه نفسه.

حينها دخل مهند بكؤوس الشاي، فسكتَ المتحدّث مع دخوله، وبقي أبو سالم وزياد يتفرّسان بوجوه بعضهما خلسةً كُلٌّ واحدٍ منها يسترقُ النظرَ ليرى ما فعلت السنون بوجه الآخر، كم بدّلته، ما سلبت منه وما أعطته. كان زياد نادمًا على إتيانه كندمه أيضًا على هذا الهجران الطويل في تردد بين الخروج والقعود. وعبد القاهر ينظرُ ليرى الحدَّ الذي سيقف عنده أبو سالم في الحديث، فهمَ أنه لا يريدُ التحدُّثَ أمامَ خطيبَ ابنته، لكنه لم يستطع أن يلتزمَ الصمتَ أكثر، فقال: والآن إلى أين وصلنا، قد تأخر الوقت، ولكلٍّ منا مشاغله في الصَّباح. أنتَ تعلمُ أصلَّ حاجتي من هذه الزيارةِ وما يترتبُ عليها مُعلّقٌ بك. هنا ضربَ زياد بيدٍ راجفة على ركبة عبد القاهر وهو يقول له: دعنا نغادر.

تدخل أبو سالم: عليكَ أن تنتبه، فيبدو أنك أصبحت شديد الحساسية مع تقدمك بالسن، وهذا قد يضرُ بقلبكَ يومًا. ثُمَّ نظرَ إلى مهند، وقال: أتذكُرُ كم قلتُ لك: إن الهجران بين الإخوةِ يجبُ ألا يمتد أكثر من يومين، فإن طالَ أكثرَ من ذلك أصبحوا كما الغرباء لا يفهمُ أحدهم الآخر. انظُر إليه، لقد أغضبه كلامي؛ لأنه لم يفهمَ معناه كأخٍ لي، بل كغريبٍ عني. على أيِّ حال يا زياد سأقيمُ في الأسبوعِ القادمِ حفلة خطوبةِ مهند وابنتي، بثينة... لا أظنُّ أنكَ تعرفها. اقبلوا دعوتي للحضور، ولن تراني عابسًا يومها.

أجابَ زياد وهو يلتقف كأس الشاي من أمامه: سآتي.

(16)

خلال ما يزيدُ على الثلاثة أشهر جرت أحداثٌ كثيرة، بدأ الشتاء ينكمشُ على نفسه والربيعُ يتسِّع في الآفاق، فكان أبو سالم قد ارتاحَ من مسألةِ طوفان المياه في منزله وتهديد السَّماء له ونقمة الأرض عليه. وقد عزم أن يجد لهذا حلّاً قبل قدومِ شتاءٍ آخر. وحفلُ الخطوبةِ الذي تم تحديده بشكلٍّ مفاجئٍ قامَ، فكانَ كأسعد يومٍ مرَّ في حياة بثينةَ، وربما كأسعد يوم له أن يمر في مستقبلها، كانت فيه محطَّ أنظارِ الجميع وملتقى عيونهم، كانت ساحرةً بجمالها العادي وبإقبالها على السعادة إقبالِ المحرومِ.

حضرَ عمّها زياد الحفل محملاً بالهدايا والفخر، وراحَ يستقبلُ الحاضرين، ويجيبُ المهنّئين، ولم يتحرّج بأن شاركها الرقص جانب أبيها كأن الحفلَّ لابنته التي من صلبه، ولم يعبأ بمن يعرفُ قصّته ولا بعيونهم التي حاصرته وكانت ترميه بنظرات الاستغراب، بل سرّه أنه استطاعَ جذبَ الأنظارِ إليه كأنه في تحدٍّ لإثباتِ وجوده.

لم يكن الحفل كبيراً، إنما كان صغيراً أقيمَ في ساحة منزل أبي سالم، حيث أعدّها لذلك، ونظّفها وسترها بشادرٍ يحجبها عن السَّماء والعيون، فاقتصرَ الحضورُ على أقرب المقربين من كل من العائلتين المتصاهرتين وامتدّت المقاعد في طولِ الساحةِ وعرضها، بينما وُضِع مقعدٌ كبيرٌ جلسَ عليه رجل الدين وسط

مهند وأبي سالم لعقد القِران، وما إن تمَّ العقد وزعت كؤوس الشراب، ومضى رجل الدين في سبيله وبدأ الحفل.

إلا أن حدثًا جرى سيبقى في ذاكرةِ كُلٍّ من حضروه لأيام، فأم يحيى حضرت الحفل رفقة ابنها يحيى مدفوعةً بإلحاح أبي سالمٍ عليها للحضور، وفي زحمة الانشغالٍ ووسطَ الصخبِ القائم ضاعَ عنها ابنها. ومتكوراً على نفسه وجدته أخيراً يختبئ خلف عربةِ الفول التي جُلّلت بساتر أسود عُلقت عليه أحبال الزينة قد أصابته نوبةٌ من فزع، فهجره صوته، وأصبحت غمغماته تشبه نباح الجراء يوم مولدها. وما سبقَ لأمه أن رأته على هذه الهيئة خارجَ المنزل طوال عصر جنونه، فنوبات الفزعِ عادةً ما تصبه خلالَ نومه وفي معزلٍ عن النَّاس، أما اليوم ووسط هؤلاءِ الحضور الذي انتبه كثير منهم إليها، فهذا ما لم يسبق له أن حصل معها، فأصابها من الخوف عليه قدر ما أصابه.

ساعدها أخيراً بعضُ الحاضرينَ في انتشاله وفي طليعتهم الحلبي... ومضى معها يسوق يحيى إلى المنزل بعيداً عن الحضور. ومع تعافي الحفلِ من آثارِ نوبةِ المجنون لاحظت رشا أن شيئًا استحوذ على أمها السيدة زبيدة جعلها تتسلل إلى غرفةٍ خاليةٍ وعلاماتُ الصدمةِ عليها، نقّلت بصرها بينَ الحضورِ علّها تلحظُ ما يساعدها في الفهمِ، فما وجدت أن أحداً قد لاحظَ ما لاحظت، نظرت نحوَ أبيها، فوجدته قد عادَ إلى الرقصِ والتمايل والسعيَّ

بين النَّاس، وملامحه الحادةَ يقطُرُ منها التكلّف، وحدها زبيدة من بين كل من حضر قد تبدّلت أحوالها، فمضت رشا إلى الغرفةِ التي قصدتها الأم لتجدها قد دفنت رأسها بكفيها دون أن تصدر صوتًا، فكان واضحًا عليها أنّها تمنعُ نفسها من الانهيار وتذرفُ الدموع إلى داخلها حممًا من جهنّم؛ كيلا تفضحنها، فما تركت رشا وسيلةَ لتهدئتها أو لمعرفةِ ما أصابها، ولكن دون طائل. إلا أنَّ الأيام التاليّة ستبيّنُ لها كُل شيء، وستزيلُ الغطاءَ عن المستور.

في هذا اليوم لم يعد الحلبي إلى بيت أبي سالم إلا بعد انتهاء الحفل وانفضاض النَّاس، فقد بقي مع أم يحيى إلى أن اطمئنَّ أنها استطاعت مواساة ابنها وإيداعه الفراش، فطمئنها عليه، وواساها بما يستطيعُ من القول بعد أن تحادثا طويلاً وخرج. كان الصلح قد تمَّ بينه وبين حماه بمعيّةِ أبي سالم، وعادت زوجته إليه، لكنَّ الفتقَ الذي أصابَ روحه بقي يرفض الالتئام. وحينَ عادَ إلى الحفل ليصطحبَ زوجته إلى المنزلِ كانَ يلعنُ ويشتُم بغيظ أصرَّ على مداراته عن الآخرين. رأى أبو سالم ذلك في وجهه كما رأى جزع زبيدة زوجة أخيه، فهمَ شيئًا من أسباب حزنها وقاده عقله ليخمّن سبب تجهُم الحلبي أيضًا، لكن سعادته الفائضة بحفلِ خطوبةِ ابنته جعلته يغضُّ الطرفَ عن كُلِّ ما يرى.

لقد كان الحفلُ صورةً مبتذلة للسعادة والمودة، جميعُ الوجوه مزيّفة هذه حقيقة لا مجال لتكذيبها، أصواتُ الضحكات تصدحُ

بتكلّف، المجاملات تزاحمُ الهواءَ، كُل شخص يخفي ما به بطريقةٍ أو بأخرى. المجنون الذي كان أحوجَ ما يكون ليلعنَ العالم في يومه هذا، ليلعن الوجود برمته، ماضيه وحاضره، اعترته نوبةٌ كانت وجهاً مشوهاً وتعبيراً كذوباً بالرغم من صدقه وأصغر ممّا تقتضيه الحاجة، كذلك زياد وشبيهه في القصةِ أحمد شقيقُ مهند ذينكَ الرجلين المتنقلين بين شعور الندم على ما فات وشعور الخجل من الهزيمة التي بقيت موثقة في عيون من كان شاهداً عليها وزبيدة لغز الفجيعةِ الذي حارت به رشا. كُل أولئك الشخوص ارتدوا جلوداً غير جلودهم، وكانَ الزيفُ اللون الواحد الذي تلونت به وجوههم، وبثينةُ التي اعتراها فرحٌ لم تجربه من قبل حتى حسبت أنها ما ذاقت ألماً قبل يومها هذا، ولن يؤذيها ألمٌ بعده، هذا الفرحُ بحدِّ ذاته اتضحَ أنّه ضربٌ من ضروبِ الخداع.

فبعد أن تمّت الخطوبة أحسّ الطرفان أنّ أحدهما امتلكَّ الآخر كأنَّ عقد القِران بينهما كانَّ عقد امتلاكِ إنسان لرقبةِ إنسان لا عقد إشهارِ المحبة وإشهاد الشهودِّ عليها. فكان من بثينة بعدَ أن استأمنت من الميثاقِ بينهما أن شُغِلَ عقلها بغراميّات مهنّد الماضية ونجحت باستدرار لسانه بادئ الأمر حتى مُلِئت دلاءً من القصص، قصّها مهند وهو يضحكُ على ذكراها كعجوزٍ يستذكر مغامرات شبابه، فيزيد عليها ويقتطع منها لتكون وفق الشكل الذي كان

يتمنى أن تكون عليه. وفاته أن يعلم أن النساء لا ينسين ولا يغفرن زلّات الرجال وإن أبدوا غير هذا.

مثّلت تجاربه السابقةَ عبئًا على بثينة كما مثّلت مع الأيام عبئًا عليه، فالخلل تسرّب إلى أسلوب عيشهما عبرَ الغيرةِ الشديدة التي أخذ كُلَّ واحدٍ منها يُثقل بها حياة الآخر. جعلت بثينةُ تشكُّ به ولا تثقُ بكلامه ووعوده، وتراقبه وتحاصره بالأسئلةِ بأسلوبٍ يدفعُ للضجر، وهو أيضًا ليس بأعقل منها، فقد كان أشدَّ غيرةً عليها وأكثرَ محاسبة لها، وما من تصرّف لها إلا ويقع عنده موقع المقارنة مع ما يشابهه مع تصرفات النسوة في علاقاته القديمة، وما من فعل تفعله إلا ويبني عليه في الخيال أفعالاً أخرى لم تفعلها. فالخبرة القليلة التي جناها من تاريخ علاقاته الطويل نجحت بشكلٍّ ما بأن تُسيطرَ على مجرى حياته الآن، ولم ينفعه أنه بات ينظرُ لتلك العلاقات نظرةَ المترفِّع عنها، فلقد استطاعَ سلوكُ الانحراف ساعة اللهو أن يهدر قيمة سلوكَ الاستقامة ساعة الجد.

أمّا أبو سالمَ، فقد كانَ يراقبُ ما يجري بينهما دونَ أن يتدخّلَ وراوده شيءٌ من الندمِ في لحظةٍ ما والكثيرُ من الخوف، لكن إرادته قضت بأن يتركَ الأمر ليسري مع المجرى الذي قُدّرَ له. تمكّن قبل قيام الحفل من إزاحة واحدةٍ من همومه، فقد أتى لعربته بعجلاتٍ جديدة بما تبقى معه من ثمن سوار زوجته، لقد كانت تلك العجلات أعلى أهميّةً عنده من أي شيءٍ آخر، ووصلَ شأنهم عنده

بأن عدّ كرامته معلّقة بهم، فدفعَ في سبيلهم كُلَّ ما تبقى معه من النقود. وبلغت به السعادة أنه كان في اليوم الواحد يقوم بتنظيفهن وتلميع حوافهن مرات عدة، كان يدخّن سيجارة تلو الأخرة وهو ساهمُ النظرِ إليهن مثلَ هاوٍ أمامَ منحوتةٍ رائعة. فلا عجبَ إذاً بأنه غامرَ وبذل بقيةَ ماله لشرائهنَّ دونَ أن يلتفتَ لمسؤوليّة الحفلَ المُلقاة على كتفه. ولأنه رجلٌ اعتادَ أن يتعايشَ مع عيون المُدينين، ذهب واستدانَ ما يكفيه لإقامةِ الحفل.

حاولَ زيادَ قبل الحفل أن يعطي أبا سالم بعض المال، رزمة من عشرينَ ألفِ ليرةٍ تعادلُ ما يجنيه على عربة الفول خلال شهرين. حينَ نظرَ إليها لم يعرف بما يجيب، كانت هذا العطيّة ستدفعه أن يطردَ أخاه من المنزلِ، أو أن يبطشَ به بشكلٍ من الأشكال، لكنه أمسكَ نفسه عن فعلِ ذلك، ورفضَ عطاءَ أخيه بسخريةٍ أشعرت زيادَ بالذُلِّ.

(17)

وقعت رشا في مصيدة الحيرة وهي ترى منزل عائلتها يزداد اضطراباً من بعد ليلة الحفل دون أن تفهم السبب، وحاولت كثيراً أن تستعلمَ من أمّها لتبلغَ مكمن صدمتها وجزعها الشديدين والمتزايدين، لكن الأم دائماً ما كانت تنجحُ في التهرّب من الإجابة. وقد أفضت رشا إلى زوجها بكلِّ شيءٍ، فلمحت بعينيه أنّه على معرفةٍ بالأمر، ولكنّه اختارَ السكوت.

وبعد غروب شمس هذا اليوم خرجا من المنزل، كانت في بادئِ الأمر تظنُّ أنهما متوجهين لزيارة عمّها، وإذا بزوجها يأخذها إلى منزلِ أم المجنون... كان الحلبي هادئاً... يتصرفُ باتّزان، ويحاولُ أن يبتسمَ بين الكلمة والكلمة. وابتسامته تلك جلبت معها الطمأنينة إلى نفس أم يحيى، حيثُّ إن التعب كان يزدادُ في جسدها يوماً بعدَ يوم. فهي الآنُ قد نسيت عادتها القديمةَ بالمشي من زاويةٍ إلى أخرى والوقوف الطويل عند النافذة تلك العادة التي بقيت عالقةً بها سنوات، لكن قدميها تعبتا، فتراها متمددة في فراشها لا تفارقه إلا للشديد المُلِح وعيناها عملتا عمل الأقدام، فهي من فراشها الرقيق تنظرُ نحو النافذة والباب بالخوف المعهود نفسه.

أخذت رشا تنظرُ حولها باستغراب وهي تلاحظُ هذا الشبه بين البيت وساكنيه، هذا اللون الرمادي الباهت الذي اشتركوا به جميعاً، وتلك الرثاثة الأصيلة التي جُعلت فيهم كأنّ لهم عظاماً

رثّة كُسيت بلحمٍ رثٍّ سُتِرَ بثيابٍ رثّة. وعلى غير عادته كان المجنون قد تخلى عن معطفه الأثير. أو لنقل: إن أمه قد أجبرته على ذلك، فكان يرتدي قميصاً أزرقَ امتصّت الأيامُ لونه حتى أصبح فاتحاً كسماءِ الصيف، وقد لبّت له أمه حاجته بذكاءٍ، فأزالت أزرار النصف الأسفل للقميص، وقامت بخياطته، وأبقت على مسافةٍ صغيرة مثل فتحة الجيب تتسع ليد ابنها ليضمها داخلَ صدره مثلما اعتاد. بادرت رشا تقولُ لزوجها بصوت منخفضٍ: تحدّث إلى يحيى، ودعه يقترب من مجلسنا.

فقد تذكّرت لقاءها به في ليلةِ الصفاء التي زارت بها عمّها منذ أشهر، ثُمَّ اللقاء الأخير في الحفل الذي تمَّ بما يؤجج الشفقةَ في الصدر، فشعرت بأنها تعرفه وعلى صلة به أكثر مما تعرف أمه، لذلكَ طلبت أن يقتربَ إلى المجلس.

سمعت أم يحيى قولَ رشا، فنادت على ابنها برفق ليأتي إليهم، ويتركَ الزاوية البعيدة عنهُم، فلبّاها من فوره.

قال الحلبي بعد أن اقتربَ يحيى منهُم: انظري يا رشا، هذه أم يحيى أعلمُ أنها تُقدّر مجيئنا، وتحبُّ أن آتي إليها وأجالسها، أو هذا ما تقوله لي على الأقل. لكنها تستلذُّ بإتعابي.

ضحكت أم يحيى وقالت: قد تغارُ زوجتك عليك مني الآن. عليك انتقاء كلماتك بحذر.

كتمت رشا ضحكتها، بينما استأنفَ الحلبي: حسنًا هذه زوجتي. أخبريها أنت، فإني لا أضمنُ ذكاء لساني، أو دعينا ننتظر قدومَ أبي سالم، لقد دعوته للقدوم، وأرجو ألا يتأخر.

صمتت أم يحيى، وأشاحت بوجهها عن الحلبي وهي تغمضُ عينيها بأسفٍ واضح في حين كانت رشا تستمعُ لهما، فلا تميز بين هزل الحديث وجدّه. تبدّل المجلسُ مع حضور أبي سالم، عندما دخل ورأى ابنة أخيه رشا حاضرةً توجس، وتكهّن عقله سيرورة الأمر، لم يكُن يعلمُ سبب إصرار الحلبي صبيحة اليوم على اللقاء عند أم يحيى، لكنه أتى على أي حال، ومن جلوسه ابتدأ كلامه بالسؤال عمّا وراء هذه الزيارة. فأجابَ الحلبي: ليسَ هناكَ ما يقال عندي، أتيتُ بكما لتسمعا مثلما أريدُ أن أسمع مراتٍ أخرى. حدثيهُم يا أم يحيى، أنبئيهم عن سبب ما أصاب ولدكِ في حفل الخطوبة. ثُمَّ تابعَ يخاطب رشا بصوتٍ شديد التوتر والحدّة: ألا تريدين أن تعلمي الدافعَ لصدمةِ والدتكِ وانكسارها.

هنا تدخّل أبو سالم بشيءٍ من الغضب: لقد عُدتَ من جديد إلى استهتاركَ القديم، ما لكَ ولهذا الحديثَ؟! أفلا تعرفُ أن تستكينَ وزوجتكَ بعيداً عن قصصٍ باليّةٍ منسية.

إن رشا بحالتها هذه تنقلُ بصرها بين الحاضرين دون أن تفهمَ شيئًا مما يقال، لقد اختلطت عليها الأمور في هذا النقاش الذي بدأ يمتدُّ ويطولُ، وكُلٌّ من الحاضرين يتحدث من خلفِ ستارٍ،

كلامهم أحجياتٌ وألغاز، ولا أحد منهُم يجرؤ على قول ما عنده بصراحة، ودون تحايل على الكلمات والمعنى. كان المجنونُ وحده من ينظرُ إلى رشا ويكترثُ لوجودها، ينظرُ إليها ويخفف عنها بضحكاتٍ عفوية.

أخيراً بعدَ أن طالَ النقاشُ وبدا أن أبا سالم يريدُ أن يفضَّ هذا المجلسَ بموافقة أم يحيى. قال الحلبي وهو يلتفت إلى رشا التي تجلس جواره: انظري إلى يحيى، وستعلمين لم تبدّل حال والدتك في ليلة الحفل، فهو ماضيها المنسي وحاضرها المتمرّد على الذاكرة. لقد امتدَّ الوصالُ بينهما فيما مضى قبلَ أن يأتي أبوك ويقطعه.

حاصرَها الخوف وهي تستمع إلى كلام تميم، بدت معالم الأمور تتضحُ إليها في حين أُسكِتَ تميم عندما رأى هياجَ وجه أم يحيى، وسرعان ما بدأ نفسها يضيقُ، واشتدَّ عليها السعال. ثُمَّ قامت وحدها نحو المطبخِ بخطا متمايلة، فملأت كأس ماءٍ لنفسها، وعادت تحمله وهي تنظرُ نحو النافذة، وفي عودتها نهضت إليها رشا بلهفةٍ، وساعدتها بالجلوس، فأمسكت أم يحيى بيدها، وأبقت عليها جانبها على الفراش، ولم تُفلت يدها. ثُمَّ قالت: إنّ لكِّ قلباً أبيضَ، فاغفري لزوجكِ شدّته لم يَكن يقصدُ أن يسيءَ لك بكلامه، لكنَّ قبحَ الحال دفعه للكلامِ بهذا الأسلوب الخشن. آه يا ابنتي!! ما أردتُ يوماً أن يتجدد الكلامُ عن هذا الأمر، ولكن

على أي حالٍ لقد دفعني زوجك إلى ما كنتُ أكره. أحب يحيى والدتك زبيدة، وأمضيا سنواتٍ في ذلك الترابُط السامي، ولم يكن يحيى بحالته هذه التي ترين الآن، إنما كان دمثًا عاقلاً يشهدُ له بهذا كُلُّ من عرفه في ذلك الزمان. ولمدّةٍ اختفى عن الحي، وحين أعدناه كان على حالته هذه. فما كان من أهل والدتك إلا أن طلبوا فسخ عقد الخطوبة. لقد عاشت أمك أياماً عصيبةً في شبابها بكت بحرقةٍ على حاله حين عودته، وقامت بخدمته هنا في المنزلِ حين كانت تستطيع زيارته، ثُمَّ انقطعت عنه، ربما فكّرت وراجعت نفسها بإتمام الزواج مع شخصٍ هذه الحالة... نعم لقد تخلّت عنه، وهذا حقها، من يقبلُ العيش مع شبح؟!

تابعَ الحلبي حينَ صمتت أم يحيى: حاولَ أبوك الزواجَ من أمّك في ذلك الزمن، لكنّه رُفِضَ مراتٍ ومرات بإرادةٍ حرة من والدتك التي كانت في ذلك الوقت تخفي عن أهلها علاقتها بيحيى ويتحينون الفرصة؛ لكي يتقدّمَ لها وتخبرهُم بأمر حُبِّها، وحينَ تقرّب يحيى من أهل والدتك وتمَّ العقدُ بينه وبينَها تدخّلَ أبوكِ...

هنا صمتَ الحلبي وجالَ ببصره على أبي سالم، فوجده واجمَ الوجه لا يبيّتُ نيةً للكلام ورشا صامتةٌ تنتظره أن يُكمِلَ سرده. لكنَّ أم يحيى هي التي تابعت بصوتٍ به بحّةٌ رقيقة: في الوقت الذي علم فيه أبوك أن الفتاة التي يسعى إليها ستكون من نصيب غيره ملء

قلبه بالغيرة والحقد، آهٍ من ذلكَ الوغد!! صحيحٌ أني لم أره، لكني رأيت نتاج أفعاله.

سحبت رشا يدها من يد أم يحيى، وأرادت أن تنهضَ أو أن تقولَ أي شيءٍ للدفاعِ عن أبيها، وقد نظرت نحو زوجها متأملةً أن يشدد من أزرها، فوجدت بعينيه نظرة شفقةٍ أسكتتها، وأكدت بقلبها ما تسمع. هنا منعتها أم يحيى من النهوض، وعاودت مسكَ يدها، وأخذت تمسح عليها بدفء وروية وهي تتابعُ: لقد دفعَ أبوكِ بأحد ضباط المخابرات لخطف يحيى واعتقاله... اعتقلوه من أمام باب المنزل دونَ أن يشعرَ بهُم أحد، فقدنا يحيى، ولأشهر لم نجد له طريقًا أو نسمع عنه خبراً... وأُمّك المسكينة انتظرت وصبرت وساعدتنا عائلتها بالبحث عنه، ووقفوا جانبنا كما يجبُ على الإنسان الشريف أن يقف.

كانت أم يحيى تتكلّمُ بتردد وتقاوم الخوفُ الذي غشي فؤادها لسنواتٍ، لمع برأسها كلامُ تميم الحلبي ذات يوم (إن فقد ابنك النطقَ، فكوني أنت لسانه)، فأحسّت بمسؤوليةٍ كبيرة قد أُلقيت عليها. تابعت وهي تنظرُ نحو الباب: حينَ فقدنا الأمل في عودته ونبت اليأسُ في تجاويف قلوبنا عادَ إلينا... لقد توقعنا كُلَّ احتمالٍ لاختفائِه، وكُلَّ احتمالٍ لعودته. لكن حالته حينَ عادَ فاقت كُلَّ الاحتمالات، وأقعدتنا عاجزين.

سألت رشا وجسدها مُختلٌ مما تسمع: كيفَ علمتُم أن والدي هو مَن تسبب بهذا؟

إنَّ أبا سالم في حقيقةِ الأمرِ يعلمُ هذه التفاصيلَ بشكلٍ دقيقٍ، لكن لم يسبق له الكلامَ بالأمرِ مع أحدٍ ولا حتى مع أخيه زياد، فقد علمَ ما علم بعدَ أن افترقا بسنوات. فكانَ يسمعُ وقد تجدد شعورُ الاستصغارِ لنفسه من فعلة أخيه، فأخذَ يهزُّ رأسهُ تأكيداً على ما قيلَ وكأنَّه في أعماق نفسه يريدُ من أم يحيى أن تُكملَ شرحَ ما جرى لا لشيءٍ، غير أنه لو تحدّثَ الحلبي إلى زوجته، لربما قسى عليها بالكلامِ إلى حدٍّ يُضِرُّ بها، فأسلوبُ الكلام قد يجرح الإنسان أكثرَ من فحوى الكلام نفسه.

لم تجب أم يحيى على سؤال رشا، إنما طلبت من الحلبي أن يحضر لها ألبوم صورٍ كان مدسوساً في خزانةٍ خشبيةٍ صغيرة يستندُ بظهره عليها، فتناولت من يده الألبوم وهي تضيف: لن يستوعبَ عقلك شدّة الأمر ما لم يرَ الفرق بين الحالتين. جعلت أم يحيى تقلّب الصور القديمةَ، فتمضي سريعاً عن كُلِّ صورةٍ ليس بها يحيى، وتتوقفُ عند صوره، فتغوصُ في ذاكرتها لتحدد الزمن الذي التقطت به هذه الصورة، وتلك فإن كانت للصورة قصة تذكرها قصّتها على السامعين، وقد كانت جميعُ الصورِ ليحيى قُبيلَ أزمته، فأخذت تقول: انظروا إلى هذه... هنا كنا في أحد البساتين ويحيى يتلقطُ لنا بعضَ التوت من فوقِ الشجرة، وهذه كانت في يومِ عيدٍ

وهي الصورة الوحيدة له مع أبيه الراحل. وهذه وهو مغشيٌّ عليه من الضحك. انظروا إلى عينيه يكادُ يبكي من شدة الضحك، لا أذكرُ ما الذي دفعه إلى هذا الضحكِ يومها. وبينما هي تُقلّبُ الصور صمتت، وهدأ انفعالها، ثُمَّ تابعت وهي تُعيد الألبوم إلى رشا: وهذه الصورُ كانت في حفل خطبته على والدتك، خذي، فاملئي عينكِ منه وهو في عافيته.

تنقّلَ ألبوم الصور من يدٍ إلى يد، فكانَ يحيى ينظرُ إلى صوره معهم ويضحكُ وهو يشيرُ إلى نفسه بيده الحرة وقد غلبت عينا أمه الدموع، فانهمرت ساخنة على خديها.

حين أغلق أبو سالم البوم الصور التزم الصمتَ مثل الجميع إلى أن أعادت رشا سؤالها كأنها تبحثُ عن فرصةٍ لتبرءة أبيها: وكيف عرفتم أن أبي خلف ما جرى...؟!

مسحت أم يحيى وجهها وزفرت قبل أن تجيب: بعد سنواتٍ من عودة يحيى إلينا زارنا رجلٌ كان رفيقًا له في مدة اعتقاله، وحدّثني بما رأى وسردَ لي كُلَّ ما جرى ليحيى، في تلك الأثناء كان كلامه ثقيلاً ومروعًا مثل وقع أقدامِ الجلاد على صدر ضحيته. لقد وصل يحيى إلى السجن وهو بكاملِ قوته، إنسانٌ تنطلقُ الحياةُ من ثنيات وجهه والأملُ والصبر من كل كلمةٍ تصدرُ عنه وفي أيامه الأولى بقي في المنفردة يخوضُ جولاتٍ من التعذيب دون أن يعرفَ ما هو جرمه، فرسخ في عقله لشدة التعذيب أن فتح باب

الزنزانة عليه هو بمثابة فتح بابٍ يطل على زبانية جهنم، وكانت غايتهم أن يحطموا نفسه ويكسروه، ويذيقوه الذلَّ حتى يصلَ إلى قناعةٍ مفادها: إنه أقلُّ منزلةً من الإنسان، ومن الحيوان، ومن أي كائنٍ آخر. وحينَ ظنوا أنهم نجحوا بذلك ساقوه إلى غرفة التحقيق، فقدَّمَ له المحقق عرضاً مفاده: إنهم سيمنحوه حريته مقابلَ أن يفسخَ خطوبته ساعة خروجه من السجن. لكنّ ولدي كان شرساً، ولم تستطع أيامٌ من التعذيب أن تهز عنفوانه، بل زادته شراسةً، ولم يقبل بما عرض عليه، فراوغَ وأخبر المحقق بأنه يريدُ يوم راحةٍ ليفكِّرَ بالأمر. لقد تلاعبَ على المحقق بهذه الإجابة حتى استطاعَ أن ينجو من التعذيب بضع ساعات، فنقلوه حينها إلى مهجعٍ يضمُّ عدداً من السجناء، حين وصل إلى المهجع الجديد تقدم إليه أحدهم، وأعطاه قطعة خبزٍ يابسةٍ قد خبأها لنفسه من طعام الصَّباح التف السجناءُ حوله لمواساته بما يستطيعون، فكذلك يفعلون مع كُلِّ نزيلٍ جديدٍ، فهم جربوا الوجع قبله، وكانوا شركاء بالألم، وفهموا أن ما يحتاجه الموجوع من بينهم هو أن ينال لحظاتٍ من الشعور بالأمان.

بقي يحيى يومين في هذا المهجع، ولم يطلبه أحدٌ، ولم يُشركوه بجولاتِ التعذيب التي تتم بشكلٍ اعتيادي لا ينقطع. وخلال هذين اليومين استعادَ شيئاً من قوته، وتفوّقت شراسته وعناده على عقله، وحينَ استدعوه بعد ذلك أخذ يسخرُ من الضابطِ المحقق، ورفضَ

عرضه، فلم يكترث المحقق بهذه الإجابة، إنّما أمرَ عناصره بهدوءٍ لأخذِ يحيى، ومن ذلكَ الوقت أخذ يبقى في التعذيبِ أياماً، ثُمَّ يساق إلى المنفردة لتلثمَ جروحه الجرذان، وبينَ حينٍ وحين كانوا يضمونه إلى السجناءِ الآخرين ليساعدوا في معالجته ويطيلوا أمد عذابه. كانوا يسوقونه إلى حافة الموت بأيديهم، ثُمَّ يمنعونه من الموت والخلاص. ثُمَّ جُنَّ جنونهم لسببٍ لا يعلمه أحد... ربما بالغَ يحيى بشتيمتهم أو هكذا أرادت غريزته، وربما أغاظهُم صموده وخيّبَ أمانيّهم بتحطيمه... لا أحد يعلم ما جدَّ في أمره حتى هبوا مثل الكلاب المسعورة عليه، واستمروا في تعذيبه مدّة شهرٍ بشكلٍ هستيري، فافتقده رفاقه في المهجع، وظنوا أنه أفرجَ عنه، ثُمَّ سرعان ما وصلتهم أخبارُ تنقله بين المنفردة وغرفة الشّبح، وقد أبقوا عليه أياماً مشبوحاً من قدميه وهم يتنابون على سلخه، وإلى اليومِ لم تفارق جسده آثارُ الجلد والحرق بأعقاب السجائر. ثُمَّ انقطعت أخباره عن رفاقه مجدداً، وفجأةً أعيدَ إلى المهجع ملفوف اليدِ بشاشٍ أبيضَ فاقداً عقله. لقد قطعوا أصابعَ يده اليمنى، خنصره وبنصره الذي به خاتم الخطوبة، ونجحوا أخيراً بتحطيم روحه وعقله، ومجاملةً له ساقوه إلى المركز الطبي، وأعادوه سريعاً إلى السجن.

بعضُ السجناءِ بكوا لحالته، وربما بكوا على أنفسهم ومصيرهم المجهول. بذلكَ أخبرني رفيق سجنه وعيناه تفيضان من

الدمع، وبُعيدَ أيامٍ من عودته إلى السجن أفرجَ عنه. وكيفَ وصلَ إلى إحدى الحدائقِ؟ وكم بقي ضائعًا متشرداً في مدينته قبل أن نعثرَ عليه لا أحد يعلم؟

هنا نظر الجميعُ إلى يحيى، فكانَت بوجهه نظرةُ اندهاشٍ منهُم أضافت بعضَ الرّقة على عينيه المفزعتين. لم يكن أحدٌ من الحاضرين يعرفُ أنَّ أصابعه مقطوعةٌ، فقلائلٌ هم الذين رأوا يده بعد أن قطع إصبعه، فهي دائمًا مُخبَّأة في صدره محجوبةٌ عن الناظرين. حتى أم يحيى لم تذكر هذا التفصيلَ من القصة للحلبي أو لأبي سالم، ففي المرات النادرةِ التي تحدّثت بها عن قصته كانت تتغافلُ عن كثيرٍ من التفاصيل رأفةً بنفسها.

استمع الحلبي بنشوةٍ؛ لأنه استطاعَ أن يدفع أم يحيى للكلام، وأن تتخطى حاجزَ الصمت والخوف، وشعرَ للحظاتٍ بالخسّة؛ لأنه مستمتعٌ بانحطاطِ قدرِ حماه زياد بعين ابنته، لكنه تراجعَ وعدّلَ بنفسه النيّةَ بأنه يريدُ الحقيقةَ، ولا شيءَ غيرها يعنيه الآن.

سألت رشا: وهل ذكرَ له ضابطَ التحقيقِ اسم والدي... ؟!

أجابت أم يحيى: لم يذكُر أحدٌ اسمه... ولكنَّ أباكِ وحده الذي جُنَّ جنونه؛ بسبب خطبة يحيى من زبيدة... وحاولَ إنهاءها بطرق عدةٍ حسبما أخبرتني أمك في ذلك الوقت، فلم ينجح، وحين فُسخت خطبتهما في المحكمة وافقت والدتك عليه، فتزوّجا. قد تجدينَ الإجابةَ على أسئلتك عند والدتك.

نهضت رشا وهي تصرُخُ في وجوههم: إنه منطقٌ ظالم أن تضعوا أبي في هذا الموضع وفق احتمالات وتوهمات خاوية، هل أتيتُم بي لإذلالي بما تتوهمون، فإن كانت لديكم الجرأة، فاذهبوا وقولوا كلامكم في وجهه.

وهنا أخذها الحلبي من يدها وغادرا.

(18)

أحسَّ أبو سالم أنّه غدرَ أخاه إذ لم يدافع عنه ضد ما قيل بحقه، عذّبه ضميره على صمته، الصمت يوازي الخيانة أو يفوقها في بعضِ الأحيان، وعلى وجه الخصوص بعد الصلح الذي تمَّ بينهما، ثُمَّ عارضته نفسه وآلامته؛ لأنَّ أخاه هو الذي سبب هذا، فاستحقره واستصغره كما استصغرَ نفسه.

كانَ على علمٍ بحادثة يحيى منذُ سنواتٍ، فحينَ علمت أم يحيى بإيذاءِ زيادِ لأبي سالم شعرت أنها شريكته بالبلوى، فكشفت له عن سرّها، ومنذ ذلك الحين لم يتحادثا في الأمر. لكنَّ السؤال الذي راودَ أم يحيى كما راود الحلبي ورشا هو: لِمَ قامَ أبو سالم بدعوةِ أم يحيى وولدها إلى حفل خطوبةِ ابنته وهو يعلمُ تشابكَ الأمورِ بينهم وبين زياد وزوجته؟! لم يواجهه أحدٌ بهذا السؤال، وقد خمّنوا كل واحدٍ بسرّه أجوبة واحتمالات عدة ودون ثقةٍ به. لا أحد يعلمُ كيفَية انتقامِ المظلوم إلا في وقت انتقامه، فقد يخدع ويماطلُ ويعقد السلام مع ظالميه، وبلحظةٍ ينتقمُ بشكل لم يتوقعه أحد. فربما أرادَ أبو سالم أن يلقي أخاه في مغبّةِ الخطيئة القديمة، أو أنه كان مؤمنًا ببراءةِ أخيه، وهذا ما لم يكنه في الواقع، ولربما ظنَّ في نفسه أن الأمر قد شُطِبَ من ماضي أم يحيى. بقيت تلك الاحتمالاتُ وغيرها تدورُ في رؤوسهم جميعًا، ولم يتكلّف أحدٌ البوحَ بها. وهو الآن منشغلٌ بشأنٍ بثينةَ أكثر من انشغاله بقضيتهم،

فإن علاقتها مع مهند أوشكت على الاقتراب من الهاوية ببطءٍ لم يدركاه، كان أبو سالم يناجي نفسه: يجب عليَّ أن آتي بهما وأخبرهما أن يفعلا كذا وكذا حتى يظفرا بالهدوء وتمضي حياتهما. وفي كُلِّ مرةٍ ينوي ذلكَ تأخذه مشاغله، فيتراجعُ مجبوراً عمّا نوى.

أخيراً وهو عائدٌ إلى منزله لاحظَ أن مهنّداً أشاحَ بوجهه بعيداً حين رآه، لقد عرفَ بملامحه الانقباض، فتابعَ طريقه وهو يضربُ كفًا بكف، لكنَّ خاطراً أتاه دفعه أن يعودَ أدراجه إلى مهند الذي كانَ وحيداً في دكانه، قال له وهو مازال واقفًا عند باب الدكان: احدودب وجهه من العبوس قبل أن يبدأ الحياة كيفَ عساه أن يكونَ في شيخوخته! تعال، فحدثني ما الذي يجري بينكما لتبدو بهذا الانقباضِ والوجوم.

لم يجبه مهند بشيءٍ وتهرَّبَ من السؤالِ بالرغم من إلحاحِ أبي سالم عليه، تهرَّبَ من السؤال مزدريًا نفسه، لقد كانَ يجلدُ نفسه صباحًا مساءً ويستصغرُ أفعاله ماضيها وحاضرها، ووصلَ به الحالُ إلى أن يشعرَ أن كُلَّ اثنين يتهامسان، فهما بالتأكيدِ يتهامسان عليه، وكُلّ كلمةٍ غير واضحةٍ يسمعها مصادفةً هي لمز بشرفه، فلقد قست عليه، وكانت رقتها البالغة سكينًا تشوهُ روحه وهو راضٍ. ولكن متى للناس ألا يتجاهلوا آثارَ أفعالهم في نفوسِ الآخرين. لم يكن لديه أحدٌ ليلجأ إليه، فقد باتت القرابةُ التي تجمعه مع أبي

سالم حاجزاً بينهما يفوق السَّماء ارتفاعاً والجبال قسوةً. ومثل نجمٍ نفدت طاقته أخذَ يتقلصُ على نفسه شيئاً فشيئاً.

وحاولَ أبو سالم أن يستعلمَ من بثينة أيضاً، فتكتّمت في أولِ سؤاله، وحاولت أن تراوغَ وتبتعدَ عن الإجابةِ الحقيقية، ولكنه عنوةً دفعها للكلامِ، فأفضت له أخيراً بكُلِّ شيءٍ. وقد حاولت التكتّمَ على الأمر؛ خوفاً منها أن تصلَ علاقتهما إلى الانفصال، فإنَّ أولَ عائقٍ لارتباطهما في بادئ الأمر هو سمعةُ مهند السيئة بين أهله وأمها التي لم تدّخر جهداً لتذكرَ الجميع بهذه السمعةِ الموسوم بها... واليوم ليس من المعقول حسبَ رأي بثينة أن تأتي إلى أمها لتعلنَ انهزامها وتعترفَ أن علاقتها مع مهند تتشظى؛ بسبب أخباره القديمةَ وسلوكه الجديد. لقد أصبحت بينَ حالين على طرفي النقيض، فهي من جهةٍ متمسكة به أشدَّ التمسك متعلقةٌ به أعقد التعلق، ومن جهةٍ أخرى رافضة له ومنكرةً عليه ماضيه وكارهة منه حاضره كأنها بحالتها هذه بينَ حبلين كلاهما يُشدُّ إلى جهة معاكسةٍ بنفس مقدار القوةِ لتبقى في مكانها تحاولُ الميلِ إلى اتجاه صريح، فلا تستطيع.

حين أفضت لأبيها بأن شطحاتِ مهند الغرامية هي سبب النزاع، وأن غيرته وشكوكه التي لا تنتهي تخنقُ علاقتهما أخذت تبكي وتزيدُ بالشكوى كأنها لم تكُن قبل دقائقَ قليلة ترفضُ الكلام من أصله، لكن لا مناص من الاستماع إليها حتى تنتهي وقد

وجدت أم سالم الوقتَ ملائماً لتبرزَ لعائلتها وتذكرهم بأنها حذرتهم من هذه العلاقة، وأنها كانت تتكهنُ المآل التي ستؤول إليه.

استمعَ أبو سالم لها حتى انتهت، وكان غريباً لها ولأم سالم أنه اكتفى بالصمتِ، فلم يدافع عن مهند أو يبذُلَ لها النصيحة إنما كان يقفُ ليصد أم سالم حينَ كانت تتمادى في كلامها على خطيب ابنتها؛ كيلا يزيدَ كلامها الأمرَ باشتباكِ الأمر، والحقيقةُ أنه اكتفى بالصمتِ لغايةٍ في نفسه، فإنَّ بثينةَ حين بدأت بالكشفِ عما بها كان واضحاً بها نقمتها واستيائها الشديدين من مهند وشيئاً فشيئاً كانت حدة هذا الاستياء تخف، فتبدّل نمط كلامها حتى ظهر أرقَّ وأكثر حكمةً منه في بداية الحديث.

ما زالت أم سالم تزيدُ وتيرةَ الخلافِ بما تستطيعُ من كلام، فتركها أبو سالم، وغادرَ المنزلَ بينما بثينة التي كانت قبيلَ قليلٍ تهاجمُ مهنّداً وتستنكرُ حماقته، أخذت تدافعُ عنه أمام والدتها، كان المشهدُ مثيراً وغيرَ عقلاني، فجعلَ أم سالم تضيقُ ذرعاً من عدمِ نضوجِ ابنتها وركونها إلى رأيٍ يمكن الاعتماد عليه. ظنّت بثينةَ أن أباها قد ذهب ليُحدِّثَ مهنداً عما سمع منها ولينبهه ويقرّعه على سوءِ فعله وقد أخافها الأمر.

لكن غاية أبي سالم مختلفةٌ عمّا ظنّت ابنته، فهو حين لاحظ أنها محتاجة للحديثِ والإفضاءِ، وأن غضبها بدأ يهدأ بعد أن تحدَّثت،

ذهبَ إلى مهند وأخبره بذلك، أخبره أن الحديثَ برويةٍ يمكن له أن يفكفكَ أكثر المشكلات تعقيداً، وبشيءٍ ما أقنعه بأن يأخذَ بثينةَ هذه الليلةَ ليتنزها في مكانٍ ما ويتحدّثا عن كيفَ لهما أن يتجاوزا هذه الحفرة الغائرة التي أوقعا نفسهما بها. وهذا ما جرى على أي حال.

***

لابدَّ هنا من العودة لاستكمال الحديثِ عمّا حدث مع تميم الحلبي وزوجته بعدَ أن خرجا من منزلِ أمِّ يحيى، أو أم المجنون كما اعتادَ صبيةُ الحيِّ على مناداتها. فبعدَ مغادرتهما المجلسَ مشيًا دونَ أن ينبسا ببنتِ شفة لحينٍ من الوقت، كانت صدمةً قاسيةً أصابت رشا فاقت بشدتها صدمةَ زبيدة حين رأت يحيى ليلة الحفل، فرجَّعت الذكرى المطوية. مشى الحلبي جانبها متردداً وهو يحسُّ بقسوةِ الضميرِ في أوجِ صحوته وما من عذابٍ أقسى على الإنسانِ النبيلِ من صحوات الضمير الدائمة. لم تكُن غايته أن يسيءَ لرشا بدفعها لرؤية حقيقة أبيها، إنّما نفسه التي تلحُّ عليه ليكونَ مُعينًا للحقيقةِ في كُلِّ مكان يجدها به وعدم قدرته على المحاباة جعله في وسط زحمةٍ من المصائب، فلذلكَ وجدَ أنّه لو أخبرَ رشا بما يعرف، لربما أساءت فهمه، وظنّت به الظنون، فدفعَ بأمِ يحيى عنوةً للتكلُّم، وبالرغم من هذا وبالرغم من أنَّ القضيةَ

قُصّت على لسانِ من عايشها أساءت رشا فهمه، وحينَ حاول أن يشرح لها ذلك صدّته عنها والحزن يُقطِّعُ كبدها.

وصلا أخيراً إلى البيت بعد أن أخذا ابنتهما من عِند جارة لهما، كانت الطفلةُ نائمةً وتزيّن وجهها الملائكي ضحكةُ نومٍ لا يعرفُ سرّها أحد، فأودعتها أمها السرير برفقٍ بالغ، ثُمَّ بخطواتٍ ثابتةٍ وحركةٍ هادئةٍ مُتزنة مَضت وجلست على الكنبة جانب زوجها كأنها خلال صمتِ الطريق استطاعت أن تُعيدَ الاتّزانَ لأعصابها.

كان الحلبي يطقطق أصابعه واجمَ النظرِ وقد ذهبَ بذهنه إلى حيزٍ أبعدَ من مكانه، فصحّاه من شروده جلوس رشا جانبه، بقي ملتزم الصمت ينتظر منها أن تبدأه الكلام وهي تمادت بالسكوت كأنها تمحّص الكلام برأسها، وأخيراً بتردد وحزمٍ معاً قالت: لن أغفر لك ما حييت إيقاعي في هذا الموقف، لن أغفر لك استباحةُ كرامتي دون أن يرف لك جفن، وليتك كنت تعلم أن كرامة أحد الزوجين معقودةٌ بكرامةِ الآخر. لم يمر بحياتي حدثٌ شعرت به بهذا الاستصغار والكره لك مثلما حدث اليوم. لقد كنت صغيراً إلى حدٍّ يثير الشفقة وأخطأتَ والخطأ اليوم فاق كل خطأ، وغدرت بي في الوقت الذي كان يجب أن تكون مصدر الأمن لي.

هذه هي الخيانة بحق، وأي مشهدٍ يصفُ الخيانة أكثر من مشهدكَ اليوم وقد سقتني كأي حمقاء غبية لتُشهِدَ الشهودَ على انكساري، وعلى انحطاط أبي.

أدرك شدّة انكسارها، فسقطت عن لسانه المفردات وتلبسه الضياع، قال: كان همي أن تعرفي الأمر من غيري؛ كيلا نختصم.

أجابت رشا: نختصم... أتخشى الخصام ولا تخشى ذُلَّ زوجتك؟! لقد رجّحتَ ذُلي على خصامي وبأس ذلك من خيار.

قال الحلبي: ما كان مقصدي ما تقولين، وإنما هذا ما ساقني عقلي إليه كيلا أسيءَ لك، ولم أظن للحظة واحدة أن وقع الأمر عليك سيبلغُ هذا الحد.

- عقلكَ من جديد...! لقد سقطَ عقلك الذي مازلت تُفاخر به منذ عرفتك، سقطَ باختياراته وشطحاته وأسقطني معه.

عندما رأت رشا انحناء الحلبي لها ورضوخه لغضبتها تزايدت بنفسها الحميّةَ لتأنيبه. لم يكُن لديه ما يدافعُ به عن نفسه وفي حالته هذه عليه الرضا أو الاعتداء، ولا خيار ثالث، وقد اختار الرضا، وقبِلَ منها أن تغلو في سخطها عليه حتى يصلَ إلى الحدِّ الذي يستطيعُ عنده أن يبعث في قلبها الشفقةَ عليه، لكنّه فشل بذلك وبدل من أن تُشفِقَ عليه هو الذي أشفق عليها، فأصابه ما أصابها من الغمِّ. أخيراً، بعدما سكتت وأعرضت بوجهها عنه قال: لن تصدقي إذاً إنني ما أردتُ أن يجري هذا، لقد أردتُ لكِ أن تعلمي الحقيقةَ كما علمتها. لقد صفعني أبوكِ وذلني بصفعته هذه ما حييت من عمري، فرضيتُ مرغماً أن أتهادنَ معه لأجلكِ أنت؛ كيلا يُنغصَ كبريائي حياةَ أسرتي.

هنا تحركَ الحلبي من مكانه، وحاول أن يمسكَ يد رشا، لكنّها منعته وهي تنظرُ بعينيه، فاستأنفَ يقول: (حينَ علمتُ بقصة يحيى... آهٍ ماذا أقول؟! أي حملٍ ألقي عليَّ؟) واستعان بمقطع قصيدة للشاعر العراقي مظفر النواب ليصفَ حرقته، فردد: سبحانكَ كل الأشياء رضيتُ سوى الذل... سبحانك كل الأشياءِ رضيت سوى الذُّل.

وأي ذُلٍّ أشد من أن تنظرَ إلى عينَي مظلومٍ، فلا تعرفُ أن تثأر له وتنظُر لعينِي ظالمٍ، فتجبر على الصمت؛ لأنَّ الكلمةَ بوجهه بها خراب عيشك. كيفَ لي أن أخفي الأمرَ عنكِ وأن يكونَ لقائي مع أبيكِ طبيعيـًا كلقاء الترابِ مع المطر. فإن أنا أخبرتُكِ بالأمر، لقلتِ: إنَّ مهنداً يريدَ الثأر لنفسه، ويريد ردَّ الصفعةِ التي نالها بتلطيخِه لشرفِ أبي. فلا والله لقد تناسيت الصفعة وأجبرتُ نفسي على تغافلها حفاظـًا عليك. فما وجدت أمامي بعد هذا التخبّط كله سوى أن أجعلكِ تستمعين للقصةِ من أهلها. وإنّك والله لمصدّقةٌ لها، ولقد نزلت في صدرك موضع اليقين، ولكنّكِ تكابرين.

احمرّت عينا رشا في محاولةٍ منها لكتم الدموع، فأخذها تميم الحلبي إلى صدره بعد أن أحس لينها، فطاوعته. جعل رأسها تحت ذقنه وهو يلفها بذراعه واستأنفَ يقول وصوت نشيجٍ مكتومٍ وخفيف ينبعث منها: سنطوي هذه الصفحة، فلا نستذكرها بعد اليوم، فلو وصلت إلى مسامع والدتك، لربما جرّت عليها

المصائب من حيث لا تدري، ولعذبتها أكثر مما عذبتك ويكفيها من العذاب أنها عايشت نصفه، وإنَّ أباكِ يحاربني بكِ، فخصامي معه يعني الخصام مع أسرتي، وإنّك وإن كنت ابنته، لكنّك بريئةٌ من هذا الخُبث، كذلكَ كُل عائلته تشعر كأنه عشبٌ خبيثٌ في روضٍ مُزهر. لنبتعد عنه إلى الحدَّ الذي يكفينا للعيش بسلام.

صمت الحلبي وأحنى رأسه يقبّل رأس رشا، وبعد وقت من الصمت أخذ يدها إلى شفتيه، فقبَّلها قُبلة طويلة.

(19)

خلالَ هذه الأسابيع تفاقم مرض أم يحيى، فعلمَ الجميعُ أنها تحتضر، وأنّها في أي ساعةٍ قد تفارقُ الحياة، حتى أن البعض قد تمنى لها ذلك لترتاح من عذابها، فالموت انتقالٌ للراحةِ لا أكثر، وأيُّ قولٍ غير ذلكَ هو هراءٌ محضُ، الموتُ عذابٌ للباقين والمفتقِدين والمتعلقينَ بأهدابِ الراحلين، فأؤلئكَ يبقون في منتصف الدَّرب، فتموت منهمُ أجزاءٌ مع كل راحلٍ يودعهم وتبقى منهم بقيةٌ لتتجرع مرارة الفقد.

قاومت أم يحيى الموت بشجاعة، وتمسّكت بالحياة بإصرارٍ تعجّبَ النَّاس منه، فانتَصرت على الموتِ لأيامٍ خالها النَّاس بها ستُهزم. وأخيراً، كانت الجولةُ الأخيرةُ للموت، فانتصرَ عليها وتركها جسداً بارداً، وذكرى أحرُّ من الجمرِ في أفئدةٍ قليلة.

قبلَ موتِها بأيام كانت حين يأخذها الصحو قليلاً تَسخرُ مِن كُلِّ شيءٍ، وتحطُ من كُلِّ كبير، فكان آخر ما قالته للحلبي: أخبرتني أن أكون لسانًا للمجنون بعد أن فقد النطق وقد كُنت، لقد دفعتني إلى ذلكَ دفعًا، وإني أشكُرُ لك صنيعَكَ هذا، فقد أراحني وخفف شيئًا من ندمي... فاليوم يطحنني الندمُ على صمتي الطويل، مماذا كُنت أخافُ؟ وعلى ماذا؟ فليذهبوا إلى جهنمَ جميعهم، آهٍ لو بقيت لي صحةٌ، لكنت اليدَ التي تثأرُ له.

وحينَ أنهت بوحها أخذت كأس الماء الذي جانبها ورمته على النافذة التي اعتادت مراقبة الدَّرب منها، فكسرت الزجاج، وكسرت الخوف الهرم في داخلها، ثُمَّ أغمضت عينيها وهي تهدُسُ: دع الهواء يدخُل... دع الهواء يدخُل... دع الخوف القذر يخرج.

بعدَ أيامٍ من هذا اللقاء ذاعَ نبأ موتها في الحي، فاجتمع النَّاس عندَ بابها، كان لها أقرباءٌ بعيدون أخبرهُم أبو سالم، فلم يتباطؤا بالقدوم. إن هذه المرأة شكّلت ببساطتها ووحدتها اللونَ الصارخَ في اللوحة المتداخلة الألوان التي تُمثِّل هذا الحيَّ الصغير من أحياء المدينة، فأحاطَ أهلُ الحيِّ ببيتها وطوقوه مِن جوانبه، كان الصبيةُ يعادلون الرجال في العدد، كُلّهُم يحاولُ أن يختلسَ النظرَ من النافذة المكسورة، لكن ستاراً على النافذة وضعته النسوة في الداخل حال دون ذلك.

طغى الأسفُ على وجوه الجميع، تذكّروا بؤسَ حياتها، فمنهُم من رأى أن موتها راحةٌ وخلاصٌ لها، ومنهُم من جعلَ يتساءل عن حالِ المجنون بعدها، ومنهُم من لم ينبس بكلمة واكتفى بالوقوفِ والانتظار، وقد قالَ قائلٌ: من رحمةِ الله بها أن صادفَ موتها يومَ الجمعة والرجالُ في عُطلٍ عن أعمالهم، فأتى كل من سمعَ بهذا النبأ لتقديمِ المساعدة في الدفن وإبرازِ علو شرفه ونخوته، فلو كان يوم

موتِها في يومٍ آخر من أيام الأسبوع والنَّاس غارقة في أعمالها، فهل سيحضرون أم سيتقهقرُ الشرفُ عن منزلته... ؟!

لقد تكاتف الجميعُ مع أقربائها الذين لم تكن حالهم بأفضل من حالتها، فأتموا اللازمَ لإجراءات الدفن، وبدأ أهلُ الحيِّ يتسابقون للإمساكِ بيحيى، وكانَ واضحًا عليه في البدايةِ عدمَ فهمه لشيء، فقد مُنعَ من الدخولِ خلالَ تجهيزِ والدته، وبعدَ أن تمَّ تجهيزها طلبَ أحدَ الرجال أن يدخلوه لوداعها وهي مُسجاةٌ في النعشِ بعد أن غُسِّلَت وكُفِّنَت، كانت رائحةُ الزرنيخ والكافورُ قد انتقلت إليه، وهذا يعني أنه دفن وجهه بجسدها وودعها كما يودِّعُ أيُّ ولد والدته، لقد أودع الكفن دموعه وشيئًا من قلبه. وحينَ أخرجوه إلى النَّاس من جديد خرجَ بوجهٍ مختلفٍ ونظرةٍ يصعبُ وصفها، عينان محملقتان باتِّساعٍ ينظرانِ كأن لا شيءَ أمامها يرى.

ومشى النعشُ إلى المسجدِ والنَّاس من حوله، فلم يكُن من الضرورة وجود سيارة لنقل النعشِ، لكنّها حضرت وأخذت تتبعُ السائرين وهي تنعي الفقيدة باسمها، وبعدَ صلاة الجنازة مشى المجنونُ نحو المقبرة وهو يسبقُ النعشَ بخطوات، في حين بدأ النَّاس يرددون اسم الله وهم يتبادلون رفع النعش على الأكتاف. إلا يحيى، فقد بقي صامتًا، ولم يكُن بحاجةٍ لمن يرشده إلى طريق، ففي ذاكرته رُسِمَ الدَّرب مُذ دُفنَ أبوه.

كل العيون تنظرُ له باستغرابٍ وشفقة وأسى، البعضُ أخذَ يبكي عليه، الحلبي ذاته لم يستطع أن يُمسكَ دموعه ولا مهند الذي يرفع النعش بيدٍ، وبأخرى يكفكف دمعه، وأبو سالم نفرت من عينيه بعضُ الدموع على استحياء. هناك من بكا على رحيلها حقاً، ولكن كثيرون هم من بكوا عليه.

أمام القبر اجتمع النَّاس وقد ابتعدوا إلى الخلفِ حسبَ العادةِ ليشاركَ فقط أهلها في دفنها، ولا تنتهك حرمة الميت بالنظر، ابتعدوا إلى مسافةٍ كانوا يرون بها حالة الدفن من بعيدٍ، حينَ رُفعَ غطاء النعش انحنى يحيى عليه، أخذَ يتأملُ وجهها والدمعُ يسيل على وجهه حتى ارتسمَ خطان أحمران متقشران على وجهه محلَّ مرور الدمع. والكُلُّ ينظرُ إليه وهو يقبِّلُ وجهها، وبلحظةٍ نخزت قلب الجميع القريبين منه والمراقبين له من البعيد، أخرجَ يده مِن تحت ردائه، أخرجَ يده لأولِ مرةٍ أمام النَّاس وبأصابعه الثلاثة الباقية له أخذ يمسحُ على خدّيها، لم يستطع كتمان صوت البكاءِ أخيراً... اشتدَّت به الفاجعة، وعلا صوت بكائه حتى سمعه البعيد والقريب، فزادَ بُكاءُ النَّاس لبكائه. حاولوا إبعاده، فما استطاعوا كما لم يستطع جنونه أن يكون عائقاً لفهمه أنّه بفقدانه أمه سيفقدُ عوضاً عن الأصابع يداً وعوضاً عن النطق لساناً وعوضاً الروح وجوداً كاملاً. إنه باختصارٍ سيفقدُ كُلَّ شيءٍ للأبد.

كانتَ يده بيضاءَ فريدة بنعومتها لطولِ احتجابها، والآن قد لُفتت الأنظارُ إلى إصبعيه المقطوعين، وحينَ طالَ وقتُ انحنائه وبلغ صوت بكائه مبلغه واستعصت على من حوله تهدئته لبدء الدفن تقدَّم أبو سالم من بعيدٍ كيلا يطيلَ مأساة اللحظة، وأمسكَ يد المجنون، وعانقه، واستطاعَ بعدَ جهدٍ أن يفصله عن أمه. حينها هرول مهند والحلبي إلى أبي سالم، واحتضنوا مهنّد وعيونهما تتنقلُ بين الحروق التي خلّفتها ملوحةُ الدمع في وجهه وبين يده الناصعة.

تمَّ الدفنُ أخيراً، ومضى النَّاس والمجنونُ قد هدّه الجهد، حاولوا به ليصحبوه معهم خارجَ المقبرةِ، فأبى، وبنزقٍ تخلص منهم، ورحل الجميعُ خارجَ المقبرة تركوه لأحزانه وجنونه، لكنَّ أبا سالم رفقةِ تميم الحلبي بقيا يراقبانه من بعيد.

بكى... ونام جانب ترابِ القبر المبلل لدقائق، بكى... ونهضَ فأتى بماءٍ، وأخذ يسقي القبر، بكى... وجعل يمسحُ التراب بيدٍ بيضاء، بكى... وجعلَ ينظرُ إلى عيونِ صاحبيه المنتظرين، بكى... وأراد لو كان تحتَ الأرضِ أرض، بكى... وأراد لو زُرعَ بهذا الترابِ نرجس، بكى دونَ أن يفهمَ منه أحدٌ ما يريد.

وأخيراً أخذَ يمشي بين القبور غارقاً بالبكاء رافعاً يديه نحو السَّماء.

(20)

انقضت سنةٌ كاملة، مرّت سريعةً بأفراحها وأحزانها ولياليها الثقال، أيـًا كان ما حملته تلك الأيام، فإنّها انتهت، وكُلُّ وقتٍ سيمضي، ربما كان أطولَ بأوجاعه أو أقصرَ بمسراته، لكنّ مصيره الحتمي أن يعبرَ ويكونُ في النهايةِ محضَ ذكرى أو لا يكون شيئـًا. هل يعبر الزمن أم أننا نحن الذين نعبُر بالزمن... ؟!

الآن بين أسوارِ حديقةٍ معشبةٍ تستقبل الربيع اجتمعَ شخوصُ حكايتنا، كانَ هذا باتفاقِ النسوة، رشا وبثينةَ وأم سالم، لقد تزوّجت بثينةَ من مهند بعد فترةٍ قصيرة من وفاة أم يحيى، عاشا سويـًا في منزله الذي أعده لذلكَ، وقد سكت أخوه أحمد عن أمرِ الميراثِ بشكلٍ تام، فبقيا معـًا على وفاقٍ في العمل والمنزلِ، لكنَ الهدوءَ الذي أحسّه من جهةِ أخيه عوّضَ عنه الهياج الذي أصابَ حياته مع بثينةَ، فالمشكِلاتُ بينهما قبلَ الزواج انتقلتَ لحياتهما الجديدة بعد أن اجتمعا تحت سقفٍ واحد. فكانت علاقتهما مثلَ رئةٍ غضّة. وزادَ على الأمرِ أنها وجدته في سريرِ الزوجيّة عابثـًا خبيراً، فأذهلها أن تصطدِمَ بزوجها الفاقدِ عذريته بشكلٍ ملموسٍ لم تتوقعه، لقد وجدت الفرق بينهما واسعـًا، فهو الفرقُ بينَ المُجرِّبِ المُعتاد وبينَ الذي لا يعرفُ عن الأشياءِ غيرَ مسمّاها. وهذا التفصيل تركَ علامةً في مخيلةِ بثينة صحيحٌ أنَّها لم تأتي على ذكره لمهند أو لأي أحدٍ آخر، إلا أنه كانَ مرتكَزاً لكُل مشكلاتهما

فيما بعد، فإنّها إلى هذا اليوم وبعد كُلِّ ليلةٍ يجمعهما الفراش بها يخوضُ خيالها لجج الماضي، فتتخيلُ أن كُل حركةٍ تصدرُ عن زوجها في أكثر اللحظات حميمية بينهما، إنما كانَ يقومُ بها مع أخريات. فكانت تمتنعُ عنه لأيام، ولربما أخذت تبكي لساعاتٍ دون أن يراها أحد. وفي أوقاتِ الصفاء بينهما... كان إذا ما بدأ بمغازلتها تسعدُ حينَ تسمعُ كلماته الأولى، ثُمَّ يستولي على عقلها ألف عفريتٍ، فتتخيلُه وقد حدّثَ أخرياتٍ بذات الكلمات اللعوبة، فتستشعرُ عدم أصالةَ كلامه لها وشعوره نحوها، فتُحجِم وتضطرب.

الآن في هذه الحديقة طفقَ أبو سالم يستظهر جهده ليبثَّ الفرحَ في نفوسِ الحاضرين: أم سالم، ورشا، والحلبي، وبثينة، وزوجها، فقد عزموا على هذه النزهة جميعًا ليتخلّصوا مِنَ أعبائهم القديمةَ ويشحذوا نفوسَهُم لأعباء الغد. لم يستطِع أبو سالم في الشتاءِ الذي مضى أيضًا أن يصلحَ أنابيبَ صرف الماء في بيته، فقد مضى الشتاءُ عليه كالشتاءِ الذي قبله بينَ طوفانِ الماءِ وعبءِ الرائحة، لكنّه استطاعَ أن يسدَّ ما عليه من الديون، ولربما استدانَ من جديدٍ في هذا الصيف، وسنحت له الفرصة بأن يتخلصَ من مشكلة الصرفِ الصحي لديه. ولربما أجّلها لعامٍ آخرَ.

لقد انقطع الاتصالُ بينَه وبين أخيه زياد، فلم يرَ أحدهما الآخر طوال العام الفائتِ إلا مرتين، وكانا لقائين عابرين وخاليين من

الود وكأنَّ الصلحَ بينهما تمَّ لغايةٍ، وانقضى مع تمامِ تلك الغاية، فمع تجدد ذكرى المجنون يحيى انقبضَ أبو سالم أكثرَ، لكنّه لم يتفوه بشيء وليسَ عنده شيءٌ يقوله، أو أملٌ من وراء الكلامِ لو وجِدَ الكلام، ومثل ذلكَ فعلَ تميم الحلبي كأنهم جميعًا قرفوا من الاقتراب منه.

ابتعد تميم الحلبي بضعةَ أمتارٍ، وانزوى وحده في ظلالِ شجرةٍ باسقة وهو ينظرُ إلى البقيةِ ودونَ أن ينتبهوا له يتأملُ وجوههم التي تلفحها شمسٌ ناعمة، يتأملُ في أم سالم ذلكَ العناء الواضح في وجهها حتى في أكثر اللحظات ارتياحًا، كانت تجهزُّ شيئًا من الطعامِ وهي تضحكُ مع زوجها متربعةً على حصيرةٍ زرقاء موضوعة فوق عشبٍ أخضر وبثينة ورشا تلعبان الورقِ أمامها، بينما بدأ أبو سالم بالغناء، إنَّ صوته ليسَ فائق الجمال، لكنَّ تلك السنوات الطويلة التي كان ينادي خلالها على بضاعته، ويترنّمُ بمناداته، صقلت صوته وأعطته شيئًا من الخبرة بالتنقل بين طبقةٍ وأخرى. وهذه حسب رأيه من فوائد المناداة على عربة الفول. لقد طربوا لصوته، وضحكوا عليه أيضًا. انتبه مهند أخيراً إلى وحدة صاحبه الحلبي وشروده، فأتاه واستظلَّ جانبه. سأله وكلاهما مُركِز نظرّه على ما يجري بينَ النساء وأبي سالم: لِمَ أنتَ شارد العقلِ؟

أجاب تميم: أفكّرُ ماذا لو استطاعَ الإنسانُ استظهارَ المستقبلَ؟ أتراه سيستطيع أن يتجنب الكثير من الأخطاء أم تراه سيكون لحوحًا عليها بدعوة الفضولِ لتجربة شعورِ الخطأ؟

قال مهنّد: لو كان الأمرُ لي، لربما هربت من أخطائي، ماذا جنيتُ من ورائها، بعضَ المتعة والإثارة. أينَ شعورها الآن؟ لقد ذهبَ مع انقضائها، وماذا بقي منها غيرَ شرخٍ كبيرٍ وصراعٍ لن ينتهي بين الماضي والحاضر.

تابعَ الحلبي وعيناه تراقبُ رشا: أتدري ليتني لم أصحب رشا في ذلكَ اليوم إلى أم يحيى، ولا سمحتُ لأحدٍ أن يخبرها شيئًا عن أبيها، كم كنت أحمقَ وساذجًا حينَ حسبتُ أني سأنتقمُ لنفسي وليحيى بفضحِ زياد. وماذا جنيتُ من هذا كلّه؟ غير أني أطفئتُ النورَ في صدرها وخنقتُ آخرَ عصافيرِ الأمل في روحها، وقد خدَّرَت الصدمةِ حواسّها، فتساوى عندها الشعور بالشيءِ وضده، فالحزن لا يختلفُ عن السعادةِ وكل المشاعر بداخلها على نسقٍ واحدٍ من الانطفاء. كم مضى من الأيام؟ ربما سنة وتزيد، وهي في الحالِ ذاته مِن الانكسار... وليتها بقيت غاضبةً لأبيها ومناصرةً له، لكان الأمر أهونَ على نفسي، ولكنّها بدلاً من ذلكَ رضخت وآثرت أن تحافظَ على بيتها بعيداً عن أبيها. في الوقتِ الذي غابت عني الحكمة، وجعلتُ الحَمَلَ يتحملُ جزاءَ الثعلبِ وجدت هي الحكمةَ وعرفت كيفَ تمضي.

قال مهنّد: ليتَ بثينةَ تتعلمُ من حكمة رشا شيئًا... !

استأنف الحلبي يقولُ بعجبٍ: أنت وزياد والد رشا تتشابهانِ في مكانٍ.

ذُهل مهنّد من تشبيهه بزياد، واستنكرَ ذلك، فتابعَ الحلبي موضّحًا: كلاكما له ماضٍ من الخطيئة بالرغم من اختلافها، هذا هو الشبه الوحيد، أما الفرق بينكما، فهو أنّك أخطأتَ أمامَ المجتمعِ صراحةً، ولم تعبأ به، وحينَ تراجعتَ عمّا تراهُ خطأ عدتَ بضعفٍ إلى أحضانِ المجتمعِ، لكنَّ المجتمعَ لم يغفِر لك، وطردكَ من كنفه؛ لأنّكَ أخطأتَ علانيةً، ولأنّكَ أضعفُ من أن تجبرَ المجتمع على السكوت. أما هو، فقد أخطأ وهو مؤمنٌ بصوابِ ما يفعل، لكنّه تحايلَ على المجتمعِ بخبثٍ، وأظهرَ قوته وخبثه إلى حدٍّ أخاف النَّاس من الحديثِ عنه. وكذلكَ سنبقى، وكذلكَ سنعيش نرفضُ الضعيفَ الذي يفتحُ لنا أحضانه، ونحضنُ القوي الذي يقابلنا بالصفعات.

هنا سقطت دمعةٌ من عينَي مهنّد، فمسحها سريعًا قبل أن ينتبه أحدٌ لها، لكن تميمَ الحلبي أحسَّ باحتراقِ صاحبه، فعجّلَ إلى تغيير الحديث سأله: على ذكرِ يحيى، ألم تعد تراه... أو تسمع عنه شيئًا؟!

أجابَ مهنّد وهو يلتفُّ بوجهه إلى مكانٍ بعيد: لم يَعُد المجنون إلى الحي، وآخرُ مرةٍ رأيتهُ كان قد تنامى به الجنونُ وطحنه الشقاء،

فازدادَ نحولاً، وتقطّعت عليه ثيابه... رأيته يمشي فوقَ الجسر باسقًا قامته كأنه يريدُ بلوغ السَّماء، وبينَ اللحظةِ والأخرى يرفع يديه الاثنتينِ نحوَ السَّماء، ويتخبّطُ مثلَ طائرٍ جريح.

"انتهتْ"

عمّان – الأردن

20 – 05 – 2023

أسئلةٌ دونَ أجوبة على هذا النهجِ يسيرُ الكون، فيتمدّد ليتسعَ لها. لكنّ صدرَ الإنسانِ محدود ويخنقه كل سؤال بلا إجابة، وأقصرُ الناسِ عمراً أؤلئكَ الذين هزمتهم الأسئلة. هل تولد الأجوبةُ مع الأسئلةِ ثُمَّ يفترقان، يختصمان، تنبتُ بينهما البغضاءُ فلا يلتقيان؟! من يدري!

منشورات 2024
خطـــوط وظـــلال للنشـــر والتوزيـــع
الأردن، عمان، جبل الحسين، بناية (20)
ص.ب: 11190، عمّـــان 925220 الأردن
تلفون: 5746218 79 962+ - 4651846 6 962+
email: dar5otot@gmail.com
دار خطوط للنشر والتوزيع